

المقارن

تاريخ الحضارة

مملكة الإفرنج

الممالك البربرية

تأسس الحكم الإمبراطوري - لم يشأ منوك البربر النازلين في الإمبراطورية الرومانية أن يأتوا على المعاهد الإمبراطورية فيسبدها بل آثروا أن يخفوا الأباطرة ويسنوا الشرائع ويصدروا الأحكام ويحبوا الضرائب وعنى الجملة أن يحكموا كما حكم الإمبراطور. هكذا كان شأن منوك البورغوند والويزغوت والواندال في القرن الخامس لكن منك الأوسترغوت في إيطاليا تيودورينك قد بلغ في احداثه ذلك المثل أرقى درجاته في القرن السادس فكران له في فارون قصر بني على مثال قصر الإمبراطور مع وزيره وصاحب حاشيته ووكيل خرجه وأمناء ماله وكان له ولاية ومحافظون يجبون الضرائب أما العيون فظنوا محاربين ومنهم يتألف الجيش تحت أوامر الدوقات والكونتية منهم. وفي ظل هذا الحكم كان الإيطاليون يعيشون بسلام كما كانوا على عهد الإمبراطورية فانشثوا يصنعون انجاري والحمامات ودور التثيل بل شادوا أيضاً مصانع جيدة مثل قصر

فأرون ومسننة رافن وبدأ التمثيل يعود إلى ما كان عليه وتفتح مدارس البيان لقبول الطلاب وعنى ذلك العهد نبع بويس آخر شعراء اللاتين القدماء (٤٧٠ - ٥٢٤) بيد أن الغوت لم يخضعوا زمناً طويلاً لهذا النظام فبعد موت تيودورينك كانت المنكة أمالازونت تربي أبنائها غنى يد أساتذة رومانين فجاء رؤساء الجند يطلبون أن يربوا والطفل مع أترابه غنى الصيد وحمل السلاح غنى نحو ما تقتضي به العادة البربرية.

حكومة المير وفنجين - كان منوك الإفرنج في غالبا أكثر توحشاً من تيودورينك وحاولوا مع ذلك أن يحكموا البلاد على الطريقة الرومانية ففتح إمبراطور القسطنطينية لكنوفيس لقب قنصل وبطريق فظهر في مدينة تور لباساً رداء من الأرجوان وعنى رأسه التاج واقتسم أخلافه المنكة بينهم كذا يقسم الملك ولكن كان لكل منهم قصره في البقة التي كان يحكم فيها كنوفيس فيجنس غنى عرض من ذهب يحف به رجال الدولة بألقابهم الرومانية من قومس (كونت) إلى صاحب الخاتم إلى الحاجب وكان لبعضهم شعراء في قصورهم مثل الشاعر فنانتيوس فورتوناتوس الذي جاء من إيطاليا ونظم إكراماً لزواج بروهوت أبياتاً محتنة مصنعة أظهر فيها كوبيدون (إله الحب) فرحاً بالزواج والزهرة (ألهة الجمال) لتذكر أن بروهوت جميل مثلها وكان الملك شينبرينك نفسه ينظم أبياتاً باللاتينية غاية في السقم والركاكة واخترع حروفاً جديدة مثل وكان يأمر الكونتية أن يحوا بالنشاف (الحفان) رقوق كتب التعليم في المدارس العامة ليعيدوا كتابتها بحروفه الجديدة ويعنى بعنوم الدين أيضاً ودعي أن العزة الإلهية يجب أن يطلق عليها اسم واحد وقد قال لأحد الأساقفة هكذا أريدك أن تعتقد أنت وأخوانك من علماء الكنيسة. ولما أتاه من أرمينهم إلى القسطنطينية بالأقنشة والزين وأيقونات الذهب عرض ما أتوا به في قصره وعرض في الوقت نفسه حوضاً عنيقاً من الذهب

الذي كان أمر بصنعه فكان يريده للناظرين بإعجاب قائلًا أن الذي استصنعه للنزينة ولا رفع من لأن قدر أمة الإفرنج ولعصري كم استصنع إذا عشت من الأغلاق والتحف.

تخاذل الميرونجيين لم يستطع هؤلاء المقلدون في المدينة الحديثة أن يطول عهدهم فإن الإفرنج كالفوت بلغوا من التوحش مبلغاً ولم يقبلوا معه على النظام المنكي فكان الحاربون يحترمون منوكتهم لأهم كانوا من العصر الميروفيجي ولكن خضوع مؤقت وكان المقاتلة أكثرهم عرامة يعيشون بالقرب من المنك وفي موكبهم ويسببهم المنك رجاله وكثيراً ما يكون هؤلاء أكثر سطة من المنك. وفي سنة ٥٣٤ بينا كان المنك شيندير وكولتير ذاهبين لتخريب بلاد البورغوند وأراد تيري أن يبقى في منكنه جاءه رجاله يقولون لهذا لم تذهب إلى بورغونديا مع أخوانك تخلى عنكم ونلحق بهم.

يريدون تيري أن يقودهم لتخريب أوفرنيا. وبعد حين قال أحد المقاتلين لمنك كونتران: نحن نعلم أين خبت تلك الفأس الندية بدم أخوانك فإننا نستطيع بها أن نقطع رأسك وقد أخذ كونتران الفزع فقال ذات يوم في الكنيسة أمام جمهور المؤمنين: أقسم عليكم أيها الرجال والنساء الحاضرون هنا ألا تقتلوني كنا قتلنا أخواني من قبل. وكان هؤلاء المقاتلين الذين لا تدريب لهم يرضون بأن يحرقون بمنوكتهم في الحروب. لأهم كانوا يرجون في الحرب أن يعودوا وأيديهم مملأة بالأسرى والغنائم على أنهم كانوا لا يودون أداء الضرائب وحاول بعض المنوك أن ينفذوا القانون الروماني الذين كانوا يرونه نافعا في حماية المال وقد عهد تيودير منك الإفرنج في أوسترازيا إلى وزيره بارتينوس أن ينظم أمور الجباية فلما قضى لحجبه انتفض الإفرنج وذبخوا بارتينوس في كنيسة تريف (٥٤٧) وبعد ثلاثين سنة أمر شينبريك بتنظيم قوانينه بالأملاك وأن تضرب ضريبة على الأراضي والعبيد وخربت منكنة شينبريك في السنين التالية بما أصابها من الطوفان والحريق

والأوبئة وأوشك الملك أن يهلك بعد أن فقد ابنه وكان القوم يذهبون إلى أن الله عاقب شينبريك على الجناية التي ارتكبها بوضع الضرائب على الناس. ولما رأت الملكة فريدغوند أولادها قد مرضوا ألقت إلى النار سجلات ضرائب المدن التي كانت خاصة بها وإذا تردد زوجها أن يلقي سجلاته قالت له: وماذا يمنعك أن تحدي حنوي فاعمل عني حتى إذا فقدنا أولادنا الأعزّة نخلص على الأقل من العقوبات الأبدية (٥٨٠). وفي سنة ١٦١٤ اجتمع الأساقفة ورجال الملك واکرموا الملك كولتير أن ينشر أمراً بإلغاء الضرائب.

الحقوق الرومانية وملوك البربر - كان ملك الإفرنج في القرن السابع ملكاً على جميع جرمانيا ولم يكن سكان هذه المملكة الواسعة أمة واحدة متحدة أجزاؤها بل كان لكل شعب لغته وعاداته ولم يكن في البلاد قانون واحد يخضع له الجميع على السواء وكان لكل إنسان قانونه الشخصي خلال زهاء ثلاثة قرون (من القرن السادس إلى التاسع) وقد احتفظ قدماء سكان الإمبراطورية بالقانون الروماني أما البربر فكان كل واحد منهم يتبع عادات شعبه القديمة. وقد كتبت هذه العادات باللغة اللاتينية في عصور مختلفة فسميت قوانين البربر فشأ بذلك قانون الإفرنج (وهو يمنع النساء وأولادهن من كرسي الملك) وقانون ريبوير وقانون الأمان وقانون ألفريزون وقانون البافاريين وبالجملة كانت القوانين بقدر عدد الشعوب. وهذه العادات التي جعلت فيها المواد كيفما اتفق تحتوي على بعض الفصول في حقوق التملك والموارث ولكن معظمها نظام فنياً يجب عنده في السرقات وحوادث القتل.

وكان البربريون يرون أن الخصومات بين أفراد ليست سوى جرائم ليس من شأن الحكومة التدخل بها فإذا وقعت جناية قتل فمن شأن القتل أو أسرته أن ينتقموا من

القاتل أو من ذوي قرباه فكل شدة تؤدي إلى انتقام اضطراري بين الأسرات تشبه الانتقام المألوف إلى اليوم في جزيرة الكورس. ولقد كانت الحكمة لإبطال هذه الفطائع تكره الجرم أن يدفع غرامة إلى آل القتيل ليكفوا عن أخذ الثأر. وفي قوانين البربر تحديد دقيق لقيمة هذه الغرامات فنكل امرئ قيمة بحسب حاله فإذا هلك فالقاتل يؤدي قيمته برمتها وإذا جرح يدفع القاتل جزءاً من قيمته عني نسبة شدة الجرح وإذا ضرب رجل رجلاً في رأسه وشججه يدفع ١٥ سولاً من ذهب (السول خمسة فرنكات) وإذا ضرب به برأسه وأخرج منه ثلاث عظام يغرم بثلاثين سولاً وإذا ضرب به بآم رأسه فظهر محم يغرم بخمسة وأربعين سولاً. وإذا قطع رجله أو يده أو جدع أنفه يغرم بمئة سول وإذا بقيت اليد المقطوعة معنقة يغرم بخمسة وأربعين سولاً وإذا قطع له إهام يده أو رجله يغرم بخمسة وثلاثين وفي الإصبع الثالثة يغرم بخمسة عشر سولاً وعن الخامسة يغرم بخمسة سولات وعن الخنصر يغرم بخمسة عشر سولاً. وكانوا يحكمون عني كل فرد في أحكام بقانون شعبه قال أسقف في ليون في القرن التاسع ليس من النادر أن يجنس خمسة أشخاص معاً ويكون لكل منهم قانونه الخاص.

ممنكة شارلمان

الكارولنجيون - لم يوفق ملوك الإفرنج أن يخضعوا رعاياهم البربر إخضاع الطاعة وعني العكس فإنهم منحوهم عني التدرج جميع الملاك في الإمبراطورية ليكون مقاتلتهم عني مقربة منهم فغدا اأخباريون أرباب أملاك عظمى وسكنوا في أراضيهم بين عبيدهم وخلعوا ربة الطاعة فأسمى الملك الميروفنجي شخصاً حاملاً معزلاً. وقد نشأت في شرقي المملكة من أنحاء أردن أسرة من كبار أرباب الأملاك لها بعض احترام من قومها يؤمنها إلى خضوع مقاتلة بلادها لأمرها ودعا رئيس هذا البيت نفسه بدوق الإفرنج

ولما كان هؤلاء الإفرنج في الشرق أكثر مضاءً ونظاماً استباحوا كحصى إفرنج الغرب وغدى منكمهم مدير القصر لدى ملك الميروفجين وأصبح السيد الحقيقي في المملكة عامة وبعد نصف قرن أراد أحد الدوقات وهو بين لبريف أن يلقب نفسه ملكاً فسل البابا زاحري رأيه فأجاب بأن من حصنت له السلطة الملوكية يجب أن يكون (٧٥٢) وعلى ذلك تودي بين ملكاً على الإفرنج وجاء القديس بونيفاس بمسحه هو وامراته بالزيت المقدس فأصبحت الأسرة الكارولنجية من ثم أسرة ملوكية يحرمها الشعب وتقدمها الكنية.

شارلمان - كان شارلمان بن بين اقدر ملوك البربر على الإطلاق فقد اخضع في جنده جميع شعوب ألمانيا وتقدم إلى الشرق نحو الألب وإلى الغرب نحو الإبير ومملكته عبارة عن فرنسا وألمانيا وإيطاليا الشمالية وقتل الباباوات في إيطاليا على ذاك العهد وحاذروا من النومباديين وملوك البيزنطيين حتى أنهم لم يكونوا في رومية من القوة بحيث يحرمهم الناس على الدوام. وكاد البابا ليون الثالث ذات يوم أن يذبح في إحدى الفتن وضرب ودبس بالأرجل واضطر إلى الفرار واستجد الباباوات غير ما مرة بملك الإفرنج (بين وابنه شارلمان) وكانوا يحتاجون إلى حزام قادر يحصمهم فظهر من شارلمان أنه كفؤ ااذب عن هجاءهم ومنايذة من عاداهم. انتخب البابا ليون الثالث الجديد سنة ٧٩٥ فبعث إلى شارلمان بمغاتيح قبر القديس بطرس المقدس وعلم مدينة رومية طالباً إليه أن يبعث بأحد ليأخذ باسمه بيعة الشعب الروماني فأجاب شارلمان إنني راعب أن أعقد معكم مخالفة لا ينقص إبرامها يكون سداها الإخلاص ولحمها الحب حتى أنال البركة الرسولية من قداسكم ويكون لكرسي الكنية الرومانية المقدسة من إخلاصي مدافع على الدهر. وجاء شارلمان إلى رومية سنة ٨٠٠ فتوجه البابا ونادى به إمبراطوراً وعلى رواية

اجتهارد صديق شارلمان أن هذا لم يعند هذه الحفنة بل ترك البابا يفعل ما يريد قال ولو شعر بما يراد عنه لما دخل الكنيسة ومع هذا رضي بأن ينقب بإمبراطور الرومانيين وأعطى وما عدا أحوالاً نادرة لم يرض أن يتخذ بدلاً عن الناس الإمبراطوري واحتفظ بنبأه الإفرنجي وهو سر وال من الكتان مشدود بعصيات وقبض من الصوف بناط به زنار ثم رداء واسع.

وهذا التزيج لم يزد في سلطة شارلمان ولم يكن حادثاً خطيراً وغاية ما في الأمر أن أصبح في الغرب بعد ذلك الحين إمبراطوراً يعترف البابا والأساقفة بأنه منكمهم وإنه حامي الكية. وأصبحت هناك سلطتان رسميتان البابا والإمبراطور يحكمون الشعب ورجال الدين حكماً مشتركاً.

حكومة الكونية - لم يحاول شارلمان العمل بقانون الإمبراطورية الرومانية بل ترك أرباب الأملاك معفون من الضرائب غداً رأى من ريع أملاكه الخاصة ما يكفي للإنفاق على قصره والجيش لا يكتفه شيئاً فليس عليه من ثم إلا أن ينشر الأمن ويقيم ميزان العدل إذا احتج إليهم فكان الكونية هم الذين يتولون هذه الوظائف ولكل مدينة (مثل تور انجر شارتر) كونت واحد وهو في العادة أعظم أرباب الأملاك في ذلك الصقع فكان هذا الكونت يحكم باسم منك في مكورته وحكمه نافذ على من تحت يده فيدعو الخاربين للحنلات ويطارد الأشقياء وكان كثيراً عددهم يومئذ ويجمع كل سنة عدة مجالس لنحكم في الخلاء يحضرها أرباب الأملاك في تلك الكورة مدججين بأنسحتهم وكانت الكونية في حاجة إلى من يراقب حركاتهم إذ كانوا من السطوة والاستقلال في بلادهم حتى أن بعضهم دعوا أنفسهم كونية بنعمة من الله ولذا كانوا كثيراً ما يستعملون منطقتهم لاضطهاد السكان. قال الكابيتوليرليون نريد أن لا يكره

الكونتية الرجال الأحرار أن يجزوا لهم عشب مروجهم أو يحددوا لهم حصادهم وأن لا يأخذوا بالقوة والاحتياال أملاك الفقراء.

فكان المرسلون من قبل الملك يطوفون كل سنة البلاد ليراقبوا أعمال الكونتية فيجعلن السكان في كل بند ويسألونهم عما يشتكون منه ثم يحضرون الكونت على إنصافهم مهددين إياه بغضب الملك عليه ولما سقط اعتبار الملك لم يستطع إنقاذ مرسله غدا كل كونت منكاً صغيراً وتألفت من كل كونتية مملكة صغيرة.

رجال الدين في الحكومة - أصبح الأساقفة ورؤساء الأديار منذ ذاك العهد من عنية القوم وأرباب الأملاك الواسعة فيهم. ودخنوا على عهد شارلمان في الحكومة فكانت تعقد جنسة سنوية في قصر الملك لتنظر في المسائل فيتشاور الأساقفة ورؤساء الأديان مع الكونتية ورجال الجيش وإذا كانت هذه الفئات منورة أكثر من غيرها فهي التي كانت تسن القوانين وتدونها. وكان لكل مدينة كونتها وأسقفها فجعل شارلمان كالأسقف مساوياً للكونت وأمرهما أن يحكما معاً قاتلاً إننا نريد أن يعين الأساقفة الكونتية ويساندا الكونتية الأساقفة ليتمكن كل من الفريقين أن يقوم بعنده حق القيام. فكان على الأسقف أن يحرم النصوص والعصاة وعلى الكونت أن يكوه بالقوة من كانوا يعصون الأسقف ومكافأة للسلطة التي منحها الإمبراطور لرجال الدين أصبح هو نفسه زعيم الكنيه أو أسقف الأساقفة فكتب إلى البابا: إن من شأني أن أدافع عن كنيه المسيح المقدسة في الخارج من سطوات الكافرين وأن أعززها في الداخل بعريفي للإيمان الحقيقي. فالإمبراطور هو الذي يعين الأساقفة ورؤساء الأديار وهو الذي يرأس الجامع القلسة.

ولم يكن منوك الإفرنج من ثقبو الذهن بحيث يميزون بين السنطة الزمنية والسنطة الروحية بل كانوا يمزجونها ويجمعون زمانهما في يد واحدة. وهذا المزج في السنطة هو العلامة الفارقة في الحكومة الكارولنجية. فأتت نزعاً دام عدة قرون بين الإمبراطور زعيم الدولة والبابا زعيم الكنيسة. ولم تدم معاونة الأساقفة لكونتية أيضاً فقد كتب شارلمان سنة ٨٨١ في مرسوم صدر عنه: إننا نريد أن نخنوا بأساقفتنا وكونتيتنا ونكنسهم خاصة ونبحث عن السبب الذي من أجده لا يحسون أن يعين بعضهم بعضاً وعندما تجري المناقشة فتقرر الخطة التي يجب على الأسقف أن يخطتها لنفسه في المسائل الدنيوية والخطة التي يسير عليها الكونت أو غيره من رجال الدنيا في المسائل الكنسية وكان هذا هو الحد الفاصل بين سنطة رجال الدين والحكومة التي يبحث عنها شارلمان ولكن هذا الحد لم يوافق هو ولا أحد من أباطرة القرون الوسطى إلى الظفر به.

الجيش - عرف شارلمان أنه زعيم المقاتلين فقد قام بحياته بثلاث وستين حملة ولذلك قضت الحال أن يكون الشعب جيشاً ليكفي تلك الحروب التي لا تفتأ ناشئة. كان جميع أرباب الأملاك من اخابرين الغزاة بحب عادة الشعوب الجرمانية فإذا أراد الملك أن يجمل حملة يصدر أمره إليهم بالاجتماع في مكان يعينه فإذا بنفهم الأمر اليوم لا مناص لهم من الوقوف على قدم الاستعداد غداً أما الخوالب منهم فيغرمون غرامة شديدة وعلى الأساقفة ورؤساء الديار من الخاصة أن يجيوا الدعوة كما يجيها العامة وإليك كتاباً للدعوة للاجتماع ورد على رئيس الدير قولاً: نأمركم أن تحضروا في اجتماع ٢٠ حزيران في رجالكم المسنحين المسعدين على ما يجب فتذهبون إلى المكان المعين وانتم على الاستعداد على جانب يتيسر لكم معه أن تحاربوا في كل مكان نأمركم به ونعني بذلك أن تكونوا منسحين تامة أدواتكم وذخائركم فيكون لكل فارس ترس

ورمح ونصف سيف وسهم وجمعة ممنوعة وتحمل مركباتكم أدوات مختلفة من الأجناس مثل الفؤوس والمراة والمثاقب والخافز والمعاول والمساحي وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها في الجيش وتحملون منونتكم عن ثلاثة أشهر وألبسة عن سنة.

فكان يقضي على الغزاة أن يتجهزوا ويتسلحوا على نفقتهم ومن قل ماله يأتون رجالة وسلاحهم ترس طويل ولكن كل من كان لهم مال يحاربون فرساناً راكبين ومدحجين بشكة حديد. وهذه الشكة غير مستحدثة بل استعملها الفرسان البارتيون وكانت أجسام الفرسان الذين يقاتلون في الجيش الروماني في القرن السادس مملحة على تلك الصورة ولما أطلقت للنسحاريين حريتهم أن يتجهزوا كما يشاءون آثروا من الجهاز ما يقيهم الخطر أكثر من غيره وهكذا لم يبق مشاة في الجيوش في أواخر القرن التاسع لم يبق في أوروبا الغربية من المقاتلة إلا الفرسان اللابسون للحديد وهؤلاء هم فرسان القرون الوسطى.

دستور الحكومة - إن المراسيم الصادرة عن شارلمان هي مجموع ما كتبه حكومته وهي عبارة عن مناشير وتقارير وكتب ولوائح بسيطة ولم يكن معظم هذه المناشير إلا ابن ساعته صدرت في غرض خاص ولكن من القوانين ما يجب تطبيقه في المملكة كلها وقد حفظ بعضها ودخل في مصطلحات الشعوب في القرون الوسطى.

الآداب والمدارس - كان شارلمان يحب الآداب حباً ساذجاً ما يحب غير التعنين أن يروا أحياناً السطور المكتوبة بحبها لأنها تراءى له أنها غير منفصلة عن الدين المسيحي واليك ما كتبه سنة ٧٨٧ إلى جميع أساقفة مملكته ورؤساء أدياره: أحسنوا استعمال ذكائكم بعد مشاورة المخلصين لنا فقد رأينا أن الأسقفيات والأديار في حكومتنا يجب عليها زيادة على الحياة المنظمة والقيام بالدين لمقدس أن تبدل غيرهما فيدرس الآداب

وأن تعلّمها إلى من يقدر على تعلّمها بعناية الله فإن من يريدون أن يرضوا الخالق بأن يعيشوا عيشة راضية لا يتساهلون في سبيل مرضاته بأن يتكلّموا أطيب الكلام. ولما كان قد كتب إلينا في السنين الأخيرة يعرفوننا أن الإخوان الذين يعيشون فيها يضاعفون صلواتهم لنا فأنشدنا لاحظنا في معظم هذه المكروبات التي فيها شعور الحق كلاماً غنياً لا متانة فيه ولذلك بدأنا نتخوف من أن يقل العلم في أسنوب الكتابة وأن يفقد الذكاء فيكون أقل مما يجب في تفسير الكتب المقدسة ولذا نحرصكم أن تنافسوا في الغيرة على العلم لتستطيعوا أن تحمّسوا فهم الكتب المقدسة على أيسر وجه تحيطوا بأسرارها بإحاطة راسخة وعليه فقد أمر بأن يكون لكل كنيسة كندرانية أو دير مدرسة فيكون في صحنها صف يقوم رجال الكنيسة على تخريج الأولاد فيه وكثيراً ما كان يحضر شارلمان بنفسه في الدروس فيتعلم الأولاد القراءة والكتابة اللاتينية وترنيم الصلوات ومن هؤلاء الأولاد كان شارلمان يختار الأساقفة ورؤساء الأديار.

ولقد كان شارلمان يحب الأدباء فجعل حوله عصاية بمجتمع علمي مصغر ولقب الرجال الذين يؤلفون هذا الجمع باسم رجل عظيم من القدماء فاسم الكوين هوراس واسم أدا لارد أو غسطينيون واسم أنغيبير هوميروس واسم تيودولف بينادر واسم شارلمان داود. فيقضون الوقت في تأليف أشعار لاتينية وفي القراءة والإنشاد وحل المعينات والأحاجي وإليك جملة مسرّجة مما كتبه الكوين: ما هي الكتابة؟ - حافظه التاريخ - ما الكلام؟ - خيانة الفكر - من يولد الكلام - النسان - ما هو النسان؟ - المدقق الذي يضرب الهواء - ما هو الهواء؟ - حافظ الحياة - ما هي الحياة؟ - فرح السعداء وترح البائسين وتوقع الموت والأدبيات الماثورة عن هؤلاء الأدباء يرغبون فيها مع أنّها صبيانية تشبه تمارين أبناء المدارس ولم يكن للبرابرة من الثقة بأنفسهم ما يجرّؤون معها أن

يكونوا مبتكرين هم أنفسهم بل كانوا يطعنون كل الطبع باحتذاء مثل القدماء ولذلك لم يوقفوا إلى إيجاد أدبيات ذات قيمة على أن العناية التي بذلها شارلمان ورجال الدين وأدباء عصره لم تكن عقيمة بأسرها فإنه منذ نحو قرنين لم يكن في غالية شيء يشبه الأدب وما قط دونوا كتباً بل ولا أخباراً وتكتب الكتابات بالرومية التي لا يسغى عنها (كالوثائق والهبات والوصايا) باللغة اللاتينية البربرية وهي من سقم الخط بحيث يصعب حلها وبعد شارلمان أصبحت اللغة اللاتينية مضبوطة جداً والكتابة مقروءة للغاية تكاد تشبه الكتب المطبوعة.

خراب مملكة شارلمان - لم ظل عبر مملكة شارلمان فإن الإفرنج لم يستطيعوا أن يقنعوا عن عداقتهم في أن يروا الممالك كالأفلاك تقسم بعد موت الملك بين أولاده على السواء بيد أن نفسه وزع بلاده بين أولاده الثلاثة. فعاش لويز وحده وورث الكل ورزق لويز هذا ثلاثة أولاد أيضاً فأراد مستشاروه من رجال الكيسة أن يرث الملك بكر أولاده فقط لتبقى مملكة واحدة وعصدة الغزاة الإفرنج أصغر الأولاد سناً ذلك غلب حزب الوحدة على أمره وتعددت الممالك بتعدد أولاد كل منكم فكان ثقل وتكثر على تلك النسبة. أما لقب الإمبراطور فتم تثنائي تجزئته بل كان يطلق على منكم واحد ويكون على العادة من أضعفهم منطة مثل منكم إيطاليا وبعد سنة ٩٢٤ لم يعد أحد ينيق لهذا القرب. فرأى مؤلفو ذلك العهد والحزن أخذ منهم تلك المملكة العظيمة تفتت. وقد ألف فلوروس لشناس ليون مربية بعقد عقد عهدة فردون قال فيها: بدلاً من منكم لنا عدة أفيال وبدلاً من مملكة لنا أجزاء من مملكة. وما من أحد إذ ذاك كان يظن أن تلك القطع تصبح أيضاً أمماً وإن ذلك لاختلاف أبرك من تلك الوحدة الرومانية.

النظام الإقطاعي

الاجتماع الإقطاعي

الطبقات الجديدة - اضحى في القرن العاشر القوانين الخاصة بالأهم البربرية المختلفة فقبل سكان جميع أوروبا تقريباً عادة واحدة وامتاز منذ ذلك الحين بعضهم عن الآخر لا برمتهم بل بغناهم وعملهم ولم يعد يجري ذكر للإفرنج (الإفرتك) ولا للرومان ولا لنبورغونديين. بل أصبت الشهرة للفرسان والمادة والشمامسة والفلاحين قال أحد الأساقفة في القرن الحادي عشر أن بيت الله المثلث فتن أبناءه من يحارب ومنهم من يصلي وغيرهم من يعمل. وهذا الاجتماع الجديد ابتداءً نظام دام إلى أواخر القرن الخامس عشر.

الفرسان - قضى على كل رجل حر منذ عهد شارلمان أن يكون جندياً وقد جاء بعض الإسبانين ممن طردهم المسلمون يسكنون في إقليم لانك دوك فقال لويز لادبونير وقد منحهم أراضي يشيرونها إنهم كسائر الرجال الأحرار يذهبون إلى الجيش. وكل من لا يريد أن يخدم الجنديّة أو لا يتطوع أن يجهز نفسه للحرب يفقد حرّيته. فلم يكن غير رجال السلاح يعدون من أهل الاجتماع ومنذ القرن التاسع كان الجندي يحارب راكباً حصانه على الدوام (وأصبحت كلمة ميل اللاتينية ومعناها الجندي مرادفة لكلمة فارس) فيتقن حساماً من الفولاذ ورمحاً طويلاً من خشب الدردار ويحمل للتوقي من الضرب مجناً طويلاً من الخشب والجند وينس في الوعى قبيصاً مغطى بحلق الحديد، وفي أواخر القرن الحادي عشر استعصى عن هذا القبيص بآخر من زرد الحديد يصل إلى الركبة ويغير حتى الدفن والرأي محفوظ بخوذة من الفولاذ والأنف بمنخرين يتنفس

هذا. وهذا الجهاز ثقيل متشعب يقتضي لاستخدامه عادة طويئة وخادم خاص ليحمل
 الخن ويضع الخوذة والدرع وهذا الخادم يسمى حامل الخن وباللاتينية حامل الأسلحة.
 في القرن الحادي عشر انتهت لحال هؤلاء الرجال المنحيين أن يؤلفوا منهم طبقوا
 وراية فكان الأبناء في أسرة من الفرسان يصبحون فرساناً وبنات الفرسان لا يتزوجن
 إلا من فرسان ولا يحق لأحد أن يتسلح فارساً إلا إذا كان ابن فارس. وليست الفروسية
 صناعة بل منصب ورتبة ولم يكن الفرسان على ذلك العهد أن يكونوا رجالاً أحراراً
 بل دعوا أنفسهم (الأشراف) ودخل في تلك الطبقة المستازة الخدمة وحاملو الخن من
 بعد القرن السادس شر فاصبحت كلمتا فارس ومحمل الخن مرادفتين لكلمة شريف.

السادة - كل رجل عظيم في هذا اجتماع العسكري بأسره يعد رجل حرب حتى
 الكونتية والدوقات والمنوك فبين الفرسان إذاً كثير من كبار أرباب الأملاك وقد نالوا
 من الملك أملاكاً عظيمة على سبيل الهبة أو ورثوها من آباءهم وتكون هذه الأملاك
 على الأقل قرية برمتها وفي الأعم الأغلب أن تكون عدة قرى. ويدعى هؤلاء المالكون
 العظام بحسب البلاد فنعني البارونات الرجال ومعنى سير أو سنور السادة أو الأغنياء
 وينقب نساءهم بدام أي سيدة. وإذا كان أولئك السادة الأغنياء فهم في حل من أن
 يأخذوا في خدمتهم فرساناً آخرين ويذهبوا إلى الحرب في رأس جيش صغير واصطنحوا
 على اتخاذ عنهم لهم يجتمعون تحتهم فيضم من شئهم ولذلك سمو العندين

العطايا والإقطاعات - اعتاد المقاتلة البرابرة منذ عهد شارلمان أن يقسموا بالزعيم الذي
 يقوم بالإنفاق عليهم بالإخلاص له والاستماتة دونه فالمقاتل عندما يقسمك هذا الزعيم
 والزعيم متى قبله يكون ارتباطهم طول الحياة فكان لزعيم يدعو المقاتل أميني أو رجلي
 أو مقاطعي أو عبدي وهذا يسمى زعيمه سيدي فالمقاطع يصحب سيده إلى الحرب

ويخدمه حتى على المائدة فكان خادمه ورفيقه في الحرب. والسيد يؤدي إليه لقاء خدمته ما يعوله ويعطيه أسنحة وألبسة وحصاناً وأحياناً يعطيه منكا.

ولقد أصبحت العادة في الإفضال على المقاطعين بأراضي يستثرونها عامة في فرنسا أواخر القرن التاسع (وربما نشأ ذلك من كون رجال الحرب نادرين في البلاد الفرنسية) فالأرض تعط لقاء أجره إقطاعاً أو مستعرة ثم أصبح في حكم العادة المطلقة أن تطل مقاطع يتناول إقطاعاً وأنه لا سبيل إلى أن يملك المرء إقطاعاً إن لم يكن مقاطعاً لأحد أرباب الأملاك. وإذا مات الإقطاعي يحق لابنه أن يخلفه وهكذا يتولى الفرنسيان أباً عن جد شؤون إقطاعاتهم فيغدون مستقلين عن سادقهم إلا قليلاً ثم أن السادة أقسموا لسيادة أعلى منهم بأن أملاكهم نالوها منهم على سبيل الإقطاع فيقسم الدوقات والكرونية للسلك الذي كان يمنحهم الحكم إقطاعاً. ويكاد يكون جميع السادات سادة ومقاطعين في آن واحد والأراضي إلا قليلاً كانت تعتبر إقطاعات ومن هنا نشأ نظامها.

وهذا النظام الذي وضع في القرن العاشر قلنا يشهد طرائد عهد شارلمان على أن الأسماء والاعتبارات بقيت بحالها فإن المقاطع يقسم أيضاً مجناً يرتبط بها مدى الحياة وهذا ما يدعونه العطية سموها لأنها تعل المقاطع رجل السيد وإليك الصورة الشائعة في هذا الباب: أيها السيد لقد أصبحت من رجالك صاحب الإقطاع الفلاني وأعدكم أن أرفع لكم حقكم وأدفع عنكم كيد كل من يحيا ويموت. ويعد المقاطع لسيده الإخلاص والمعاونة والمشورة ومعنى الإخلاص أن لا يضم مقاطعته ولا يقاتنه ولا يعتدي على امرأته وأولاده. ومعنى المعاونة له أن يعونه سواء في المقاتلة دونه أو في إنزاله أحسن منزل وإعطائه دراهم ومعنى المشورة أن يتقرب منه ينصحه ويعينه خصوصاً على الحكم

والتصدر. انتهت هذه الواجبات بأن ضعفت وفتحت حتى أن العطية لم تكن إلا اصطلاحات مألوفة ولما غلب جوفروي دامجو تيو دي بلوا في القرن الحادي عشر اضطره لأن يتنازل له عن كونتية تورن على سبيل المقاطعة وأن يعطي لأسيره عطية.

رجال الدين - كان ينظر إلى رجال الدين (أعضاء الكهنوت) وكانوا قادرين بغناهم أيضاً. وكانوا يعتقدون بإعطاء مال أو أرضي للكنيسة كان من أكّد الأسباب نحو السمات وإنقاذ الروح فكان زعيم الكنيسة المقدس والرهبان خدمة القديس يكافئون المعطي بتدخله في أمرهم مع الله. وقد عثر في عطية خصصت لإحدى الكنائس المخصصة للقديس إيتن (١١٤٥) ما نصه: أعطيت إلى إيتن الشهير العظيم جزءاً من ارثي في الأرض ليكون لي من سنواته وصنوات أتباعه العفو عن ^{جطاناً} في النجاة الأبدية وكانت صكوك الهبات تبدأ بالعبارات الآتية: علاجاً لروحي وأرواح أجدادي وأحياناً يزيدون لدفن جسدي ولذلك يهب الواهبون أموالهم ليدفنون فيها. فكان رجال الدين يأخذون قرى برمتها وهي عطايا السادات العظام وأحياناً قطع أرض أو منكاً وهي عطايا الفرسان والفلاحين فالدير الذي يبدأ بأن يمنح منكاً واحداً يمنك مئات من القرى بعد والأساقفة ورؤساء الأديار وهم أصحاب تنك الأملاك العظيمة يصبحون سادة عظماء ليس بعد عظمتهم عظيمة.

العامة - أصبح جميع أرباب الملاك خلال حروب القرن التاسع مكرهون على الحضور إلى الجيش وكانوا إلا قليلاً من حنقة الفرسان فالأرض كانت من ثم منك الكنائس والسادات والفرسان وكلهم من أرباب كبار الأملاك لا يزرعون بأنفسهم وكانوا منقسمين إلى محلات كبرى تسمى المدن وفي العادة أن المدينة كان عبارة فيما ندعوه اليوم قرية واخنة كانت بسعتها كالمديرية. وتكاد تكون جميع القرى الفرنسية ريد

عهدنا إلى تاريخ تلك الحقبة في القرون الوسطى فالفلاحون الذين مكثوا هذه المدن سموا باسمها فسموهم العامة فلم يكونوا مالكيين للأرض بل كانوا يتوفرون على زرعها فقط فبينهم من كان من قدماء الرجال الأحرار الفقراء دخلوا في خدمة أرباب المنك كالمزارعين والمستعمرين ويسمون الأحرار والآخرين هم من نسل قدماء عبيد أرباب الأملاك ويدعون باسم العبيد الرومانيين وهؤلاء هم العبيد على أن العبد لم يكن كما كان العبد الروماني بل كان ساكناً في الأرض التي يتوفر على زراعتها وله أسرة وبيت وحقل فبيده لم يكن يستطيع أن يجنيه عن قريته ببيعه إلى مكان بعيد ولا أن يأخذ امرأته وأولاده ولا أن يأخذ منه داره ولا الحقل إذا منحطاً بدرجته عن العامي الحر.

حالة العامة - كان في الحقبة العظمية في القرون الوسطى نوعان من الأراضي فبعضها (القسم الأعظم) ترك ليحترثها ويحفظ بغلاتها والآخر (في العادة أن تكون الأملاك قريبة من دار السيد) يبقى لصاحب المنك ويقضي على الفلاحين أن يحترثوها ويوزعوها ويحصدوها له وفي أيامنا ترى الزراع عندما يكونون غير مالكيين هم عتلة بالمياومة أو مزارعون وزراع القرون الوسطى أو مزارعون في أرضهم وعتلة بالأجرة في أراضي المالك وهم بعضهم مع البعض من الأب إلى الابن إلى صاحب المنك لا يستطيع أن يأخذ أرضه التي يشغلونها ويتوارثونها كما يتوارث المنك ولكن لقاء ذلك يتحملون عدة أعمال وحقوق إقطاعية

(١) يعطون المالك أجرة الأرض وضرائب ومخصصات من الحنطة والنف الأبيض والدجاج ويسوفها العادات لأنها مقررة بحكم العادة ويميز الفلاحون العادات الجيدة أي المخصصات الموضوعة من القديم عن العادات السيئة التي يضعها السيد بالقوة خلافاً للعادة.

(٢) يجب عليهم أن يذهبوا إلى أرض السيد يزرعوها ويحصدونها ويسندونها ويقصلونها ويجففونها ويقطعون الحطب ويأتون بالقش وهذه هي السخرة.

(٣) عليهم أن يحسنوا حطتهم لطحنها في طاحون السيد وأن ينقلوا الخبز إلى قرن السيد ويحسون العنب إلى معصرة ويحب عليهم أن يدافعوا عن هذه الخدم المقررة عليهم لما يتقضي من النفقات كما يحتم عليهم في السوق أن يستخدموا قياس السيد وميزانه ويدفعوا أجرهم.

(٤) يتقاضون في قضاياهم إلى السيد وإذا ارتكبوا جثة يدفعون للسيد غرامة يأخذها لنفسه وإذا ارتكبوا جناية يحكم السيد عليهم بالإعدام ويصادر جميع ما يملكون. والعدل أي حق جباية الغرامات هو دخل يتسرب إلى جيب السيد ويعد في جنة ما عنده فيقول السيد: عدلي في الجنة الفلانية. فهو يبيعه ويعطيه إقطاعاً ويقسمه بين بنيه وليس من الأمور النادرة أن يملك فارس نصف أو ربع القضاء في قرية أو القضاء في بعض البيوت. وينصب السيد في أرضه رمزاً إلى حقه والنصوص الذين يصنهم عليها دليل ناطق بحقه في هذا الشأن. وإذا تنازع سيدان في تولي أحكام العدل في قرية (كما يحدث أحياناً) يجيء رجال السيد المطالب بترعون المصلوب ويأتون به إلى مشقة سيدهم وإذا ربح القضية السيد الذي صن المصلوب تعاد إليه جثة مصلوبه وإلا فيرجع إليه قسيس مموء تيناً بدله ويعيد الجثة أو صورها.

فالعامّة خاضعون كل الخضوع لسيدهم ولا يحق لهم أن يجتمعوا لفض مصالحهم وإذا فعنوا يغرمهم بغرامات باهظة فهو قاضيهم الوحيد. قال أحد مشرعي القرن الثالث عشر: إنك يا هذا إذا أخذت شيئاً من عبدك زيادة على المخصص لك في القانون تأخذه وأنت على خطر كما يأخذه النص وليس بينك وبين عامليك من قاضي إلا الله.

ومع هذا فحال العامة كان أقل شدة مما كان عليه حال الفلاحين العبيد في القديم ولكنهم ليسوا بعد أحراراً حقيقة فالفرسان يَحْتَرِقُونهم لِأَنَّهُمْ يَشْتَغِلُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَأَنَّهُمْ عَزَلُ مِنَ السِّلَاحِ وَأَصْبَحَتْ كُنْةٌ عَامِي عَنْدهُمْ مرادفة لكنة نذل.

الأخلاق

الحروب - جرت عادة الفرسان أن يتقاتلوا عادةً لهم أصبحت قاعدة فيحق لكل رجل يحمل السلاح أن يخوض غمار الحرب لإمانة تلحق به أو لا اعتداء على محنته فيعت الفارس إلى خصمه قفازة أو بعض شعرات من خروقه دليل على إعلان الحرب. ويدخل أتباع الحصين وذوو قريابهما في الحرب شازاً أم أبوا يتثالبون على محلات العدو ويستاقون ماشيته ويحاصرون قصره ويحاولون القبض عليه ليتفدي نفسه منهم. وتصبح الحرب من ثم لعباً وتجارة فالنعب ليس فيه خطر كبير على المصنحين من الرجال بالدروع. وإليك كيف وصف أوردرىك فيتال حرب برينول (١١١٩) بين منك فرنسا ومنك إنكلترا: سقي ١٤٠ فارساً أسرى عند الغالب ولكي عنيت أنه لم يقتل من السعدانة شخص الذين حاربوا سوى ثلاثة أشخاص فقط وذلك لأنهم كانوا مكتسبين كنهم بالحديد من مفرقهم إلى قديمهم وكان خوف الله والأخوة في حمل السلاح تدعوهم إلى الاقتصاد في الطعان والتوقف في ضرب الأقران فيؤثر القرن أن يأسر صاحبه على أن يقتله. وكثيراً ما يرى الفرسان من الأوفق أن يطنبوا من الفلاحين والتجار الفدى فتقلب الحرب إلى لصوصية. وكان في عامة البلاد سادة مثل توما دي مارل الذي كان يستوقف التجار على الطرق ويسلبهم أثقالهم ويسجنهم في قصره ويعذبهم ليكرههم على أن يفتدوا منه أنفسهم. وقد ظل حق الحرب مرعياً في جميع الولايات إلى القرن الخامس عشر فتم يرد الفرسان أن يتخنوا عنه فكانت الحرب

شغلهم الشاغل طوال حياتهم. وإليك كيف قص فوك كونت دانجو سير خاله جو فروي: إن خالي صار فارساً في حياة أبيه وكانت حربه الأولى هي التي شهدها على جيرانه فقام بقتالين أحدهما على كونت بواتو والآخر على كونت مين وأسرهما كليهما وحارب أباه أيضاً ولما قضى أبوه صارت إليه كونتية آنجو فحارب كونت بنوا وأسرت في ألف من فرسانه واضطر أن يتخلى له عن تورين ثم حارب غيوم حاكم نورمنديا وحارب كونت بوج وكونت بواتو وفيكونت توار وكونت نانت وكونتية البريتونين في رين وهوغ وكونت مين الذي كان عهده. ومن أجل هذين الحروب وما بذله فيها من الشجاعة لقب بمقاتل وحسن خاتمه لأنه رجع عن الفروسية وعن زخارف هذه الدنيا قبل وفاته بليلة وترهب في دير القديس نقولا الذي بناه هو وأبوه تزهداً ووقفوا عليه الوقوف من الأملاك.

الأبراج والقصور - كان السادة في عهد تلك الحروب في حاجة إلى تحصين بيوتهم وكانت التحصين في القرن العاشر مشعشعاً جداً وهو عبارة عن حفرة عميقة يحيطها من الخارج منحدر عليه عرائس وأشجار وفي وسط ذلك السور ينشئون أكنة وبيت السيد بني في ذروتها وما هو إلا برج قوي من الخشب وبابه عال جداً عن سطح الأرض ولا سبل بالوصول إليه إلا عبر المرور على لوح من الخشب متحرك منحدر من الباب إلى آخر الخندق. ولمنع العدو من غرقاق البرج يغطونه بمجنود حيوانات صنعت حديثاً وهذه القنعة الغنيظة هي البرج أو بيت السيد أما سائر الأماكن فتعمر في السور في سطح الأكنة (فتبها مساكن للخدم واصطبلات وأهراء) وكلها من توابع البرج. واخذ القوم في القرن الجهادي عشر (في بلاد الجنوب أولاً) يستعيضون عن العرائش

وبرج الخشب محتاط أو برج من الحجر على نحو ما كان لندرومان حوالى مدغم الحصينة
وسموا هذه القلاع باسم لاتيني كاستل أو قصر (موقع صغير من الحصن) فقصر القرنين
الثاني عشر والثالث عشر عبارة عن سور من الحجر على جوانبه أبراج وهو محتاط من
كل جانب بمخنادق عميقة أو هوى ووهاد وببيت عند الاستطاعة في مكان حصين على
منحدر عقبة كورود أو شقيف في أرض مهنة على أكمة صناعية فيها أنواع الدفاع فإذا
جاء العدو يرى أولاً في مقدمة الخندق ما يصده عن المرمى ثم الخندق الذي يجتازه
سكان القصر يصل بينهما معبر تقال معنق بسلاسل وعنيه حواجز ثم يصل إلى أسفل
حوائط السور التي أغنظوا سمكها ويقف المدافعون على الطريق المدور الذي يمتد في
الداخل على الحائط فيقذفون السهام والحجار من الشرفات (زغاليل) ومماشي الخشب
المعلقة فيحتوي على مساكن أهل القصر والخربين والاصطبلات والحظائر والأهراء
والكنيسة وب السيد وهذا البيت هو برج جسيم (من طراز بوجانسي من القرن
الحادي عشر عنده أربعون متراً وعنفقه ٢٤ وطراز كوسي من القرن الثالث عشر عنده
٦٤ متراً وعنفقه ٣١) وهناك القاعة العظيمة التي يستقبل فيها السيد ضيوفه (للسادات
العظام فقط خارج قصورهم ردهة استقبال وهي القصر) وغرفة منامه وغرفة أسرته
وخزائنه وسجلاته وفي ذروة ذلك المكان السطح الذي يشرف منه الديدبان على
الضواحي وفي الأسفل على طبقتين من الأرض الخيس أو المطبق وهو مظلم رطب لا
يخرج منه إلا بسم. فإذا داهم العدو السور يستطيع المحاصرون الذين يعتصمون في
القصر أن يدافعوا عنه رويداً رويداً وطبقة طبقة مادام الدرج الدوار ضيقاً. ويعيش
السيد في قصره وباسمه يعرف بعد فيسني بوشاردي موثورانسي أو إنجراند دي
كوسي. ولنفارس كذلك بيت حصين ويطلق اسم بيته على اسم أسرته.

الفروسية - أسلحة الفرسان ثقيلة الجرم فالواجب أن يتعلم الفارس استعمالها وحنها امتياز يجب أن يرخص للنساء بحملها فالمرء لا يولد فارساً حتى ولو كان منكاً فمن القواعد المطلقة ألا يكون المرء فارساً إلا بعد التخرج في ذلك والاحتفال به. فعلى الشاب النبق الثمن على ركوب الخيل وأن يحسن الضرب بالرمح والحسام وأن يصعد السلم. ومادام يتبرن على ذلك في بيت ابية يبعث به ابوه إلى سيد من أصحابه فيصبح الشاب بعد بضعة سنين خادماً يحمل أسلحة معه فيقود كراعده ويعنى بتربيتها ويبيسه شكته ويخدمه على متمدته ويجعده في فراشه. فقد كان القدماء يرون من أعظم العار أن يخدم الإنسان إنساناً فلما أتى البربر أصبحت الخدمة منة إمارات الشرف فالسائس يخدم الفارس وهذا يخدم سيده القوامسة (والكونتية) والدوقات أيضاً يخدمون الملك على المائدة في الحفلات.

فإذا بلغ السائس أشده يقبضه أحد الفرسان في جملة رجالة باحتفال وكان هذا ساذجاً أولاً والفارس يدفع إلى المبتدى سلاح فارس وهو عبارة عن قوس ودرع ورمح. ثم يصفعه على نقرته بجمع يده فالفارس الجديد يقفز على السرج ويرمح قليلاً وأحياناً يتسابق مع مجدار (شخص من خشب) منصوب أمام القصر وهذا يكون الفارس فارساً وبعد حوالي القرن الثالث عشر أصيف إلى هذه الحفلات حفلات دينية في الكنية فبقام قداس وصنوات ووعظ يوجه إلى الفارس أما العادات الفخمة في قبول الفارس على ما يصفونها في الأفايص الحديثة فلم توضع إلا في القرن الخامس عشر. ولكل سائس الحق أن يصح فارساً ولكن الواجب أن يكون غنياً ليتجهز بالسلاح والعدة ويعول سائساً وخدماء ولذلك يبقى معظم الشرفاء مواساً طوال حياتهم.

أخلاق الفرسان - لا يمتاز شرفاء القرون الوسطى عن الفلاحين بتعذبهم ولا بتهدئتهم فمعظهم لم يكونوا يعرفون القراءة وما شأهم إلا الشرب والطعام والصيد والحرب وكانوا في العادة متوحشين قساة وأحياناً حفاة غلاظاً فقد قتل ريشاردس قلب الأسد مثال الفروسية ٢٥٠٠ أسير من العرب وقد فقأ عيون خمسة عشر فارساً أسروا في حرب أثارها على قليب أغطس وأعادهم إلى ملك فرنسا تاركاً لهم دليلاً منهم أبقى له عيناً واحدة يبصر بها فأجاب فيليب أغطس عنى عمه بأن فقأ معيون خمسة عشر فارساً من فرسان ريشاردس وأعادهم إليه تحت قيادة امرأة حتى لا يظن أحد كما قال مادحد بأنه دون ريشاردس قوة وشجاعة ولا أن يذهب إلى أنه يخافه. وفي سنة ١١١٩ فقأ أوستاش دي بروتل أحد كبار السادة النورمانديين وصهر ملك إنكلترا عيني أحد الأشراف الذين كانوا عنده رهينة فاحتال والد المقنوعة عينه أن اخذ بنات أوستاش بواسطة جددهم وفقاً لعيونهم وجدع أنوفهم. وهذا الإغراق في الشدة والقسوة البربرية لم يزل مألوفاً حتى إلى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر. وقد أصبح الفرسان بحياة التشرد على هذا النحو قساة القلوب غلاظ الطبع ولكن منحهم بعض الفضائل التي تتطلبها الحروب وجعلتهم شجعاناً مفاخرين. والفارس التام الأدوات الذي يتغنى الشعراء بمدحهم ويحاول كل إنسان تقليده هو الشجاع أو صاحب الأمانة والتدبير. وكانوا إذا سلحوا فارساً يقولون له: كن شجاعاً. والشجاع عندهم هو المقدم المفاخر الصادق الذي لا يتنكأ بته ولا يرجع عن قوله ولا يحتمل أبداً إهانة. فالشجاعة والصدق كانت ودامت الصفات الرئيسية في الشرف. والشجاعة معتبرة لا من حيث الخدم التي تؤذيها بل لأهم كانوا يرونها جيدة في ذاتها والفارس قد يقتل نفسه حتى على غير جدوى لئلا يحتاج أحداً شك بأنه أوجس خيفة. والموت خير من أن يدعى الرجل

نذلاً كما جاء في قصيدة قديمة. وعلى الفارس أن يكون صادقاً براً بوعدده وقوله ويفتضح خاصة إذا خان يمين الإخلاص الذي يقسمه لسيده ويكون كاذباً في إيمانه خائناً في فروسيته ومن العادة في برشلونة أن من لطم سيده بيده أو طعنه بلسانه أو استباح قصره واستصفاه هو من أعظم من ارتكبوا أعظم الخيانات. يفهم ذلك من روح عدة قصائد نظمت في القرون الوسطى. فقد اضطر روندي متوبان أن يعلن الحرب على سيده شارلمان فحاذر أن يؤذيه أقل إيذاء ولما أسر وقع على رجله طالباً الصفح عنه. ولقد نال برنيه تابع روال دي كاميري ما جلب عليه العار من سيده فسأله سائر الفرسان كيف يستطيع أن يظل على خدمته فأجاب: إن راولا هو سيدي هو أكثر خيانة من جودا ولكنه سيدي فقالوا لهم أجمعون إنك محق يا برنيه.

الشرف - يفخر الفارس أنه شريف وجندي ويعرف لنفسه فضائلها فلا يشك فيه أحد بل ولا يلاحظ ذلك. وليس على أحد أن يضربه أو يهينه أو يعاكسه لأن ذلك مما يؤدي إلى أنه متهم بأمانته وهو أيضاً لا يتحمل ضربة ولا إهانة ولا تكديماً ويثلم شرفه في إطار الفرسان وفي نظر نفسه إذا لم ينتقم لذاته ممن رماه بالعار والشتار. وهذا الشعور هو الشرف وهو نتيجة كبرياء أو إعجاب شديدين فهو يتزل نفسه منزلة رفيعة ويشعر بالحاجة بأنه يريد أن يشركه غيره بهذا الفكر. ولم يكن لليونان وللرومان لفظ للتعبير عن هذه الصفة بل إنها أنشأت في القرون الوسطى وستظل إلى أيامنا دليل على الشرف الحقيقي. فتقطة الشرف والرغبة في بقاء الشرف سالماً يصبح قاعدة سلوك الأشراف ومقدماً لمكانتهم.

حكمة الإقطاعات

استقلال أرباب الأملاك - ضعفت سلطة الملك منذ القرن التاسع فصعفت طاعة رعيته فاعتاد السادات من العامة والخاصة أن يكونوا مستقنين في بيوتهم فكل صاحب ملك (فارساً كان أو رئيس دير) هو كالمليك الصغير في أملاكه فحراثته وخدمته هم رعاياه وله الحق أن يقودهم ويغرمهم ويحبسهم ويشقيهم وله مشقة خاصة وله مناد يبع أوامره إلى السكان ويحارب جيرانه وكثيراً ما يصك نقوداً. قال أحد فقهاء القرن الثالث عشر أن كل بارون هو ملك في أرضه. وكل عملة هي منكبة صغيرة بحيث أن رجال ذاك الحي يدعون أهل القرية المجاورة غرباء عنهم وكان في البلاد عدة ألوف من هؤلاء الأفيال وكثير هم فرسان فقط لا يتمكنون إلا قرية واحدة أما غيرهم من الأغنياء فيلقبون بالفاظ سير وبارون ثم أن في كل ولاية رجل يتقب بلقب كونت أو الدوق ويكون أعظم أرباب الأملاك في الولاية ولم يكن أجداده على عهد شارلمان سوى حكام في خدمة الملك بيد أن الملك في القرن العاشر لم يكن له قوة ليعيد منهم السلطة لأنهم أصبحوا كونتية ودوقات أباً عن جد وأصبحت دوقياتهم وكونتياهم إقطاعاً أي ملكاً وزهي كسائر الأملاك يمكن بيعها ووقفها وتنسيقها أيضاً (كما وقع لدوقية غاسكونيا) أو أن تنضم إلى غيرها (كما وقع لكونتي بولوز وشامبانيا) وإذا لم يعقب صاحبها ولدًا ذكر تنقل أملاكه إلى ابنته ويكون لها منها بائة (دوطة) تعطىها زوجها (ويقول عندها أن الملك صار لامرأة) وغد ذاك يكون لكل مالك في منكبة منطة منك وكل منك يجعل منكبة كمنك. وقد باتت هم الحال أن يمزجوا بين التملك والملك ولذلك كانت جميع سياسة الملوك في القرون الوسطى سياسة بيوت وأسرار وكل منك كالقلاع لعهدنا يحاول أن يوسع منكبه وأن يعزل عياله.

الملك - كان الملك أعني سادات فرنسا كعباً وارقاهم منزلة وله لقب سام ويخضع له الجميع ولكنه لم يكن أقدرهم بل كان لدوق نورمانديا وكونت تولوز أملاك أوسع من أملاكه ولم يكن يمين الإخلاص الذي يربط به أولئك السادة العظام مع الملك إلا عبارة عن حفلة أدبية يمنحهم من أن يعينوا الحرب عليه حتى أنهم كانوا إذا لم يريدون نقض العهد عننا قلنا يتصايقون منه. وقد وضع روبرت كونت فلاندر سنة ١١٠١ وفي عهدة عقدها مع منك إنكترا الشرط الآتي: إذا هاجم لويس منك فرنسا الملك هنري منك نورمانديا يذهب روبرت بعشرة من الفرسان فقط إلى جيش لويس ويبقى الحسنة فارس الآخرون في خدمة الملك هنري وإذا زحف الملك لويس غنى إنكترا وأخذ معه الكونت يتحتم على الكونت أن يأخذ معه أقل ما يمكن من الرجال. ولقد بلغ العجب مبلغه في بلاط لويس السابع عندما جاءه اسقف ماند إلى باريز يعترف بسطة منك فرنسا وقيل أن هذا البند لم يخضع قط إلا لأسقفه ولم يكن الملك كساتر السادة مطاعاً إلا في محنته واقتضى له إذا أراد أن يطاع في منكة فرنسا أن يوسع أملاكه على مر القرون ويدخنون ولاياتها في منكه الواحدة بعد الأخرى.

العادة - لم يمكن لأهل القرون الوسطى قوانين محررة بل كانوا يعنون في كل مسألة بما سلف لأجدادهم منها ويسنون ذلك اتباع العادة ولم تكن العادة مكتوبة بل تحفظ تقيداً حتى في القرن الثالث عشر أيضاً إذا حدث حادث مشبه به يجمع أقدام السكان ويسألون عنا رأوه يفعل في مثل هذا الشأن وهكذا كان لكل قرية عادتها حدثت مع الزمن ولم تكن تشعب عادة القرية المخاورة قال بوماروا لا يوجد في هذه المنكة سيدان حاكمان يعبدان بعادة واحدة ومع هذا فإن الصقع الواحد الذي تتشابه عادته بعض الشيء يتألف منها عادة واحدة. والفرق الكبير كان بين بلاد الشمال حيث العادة

كانت منبعثة من العادات الجرمانية وبين بلاد الجنوب التي احتفظت بعادات الحقوق الرومانية. وبعد فقد كان أهل القرون الوسطى يحبون العادة ويحترموها لأنها كانت القاعدة الوحيدة التي يهرع إليها والسد الوحيد في وجه الظلم وعندهم أن العادة يجب بقاؤها ومن لا يحفظها يوشك أن يفتح سبيل الخصام الكثير بين الناس.

السلم والعدل - كان أرباب الأملاك في القرون الوسطى يوطدون دعائم السلم بين عبيد محنتهم ويحكمون بينهم (أحكاماً تختلف جوراً وعدلاً) ولكن لم يوطد أحد دعائم السلم بين أرباب الأملاك وكل منهم يحكم لنفسه بنفسه وذلك بإشهار الحرب على جاره ويقتضي تقرير السلم أن يعدل الفرسان عن عادتهم في التخاصي إلى السلاح وأن يقبلوا بعض قضاياهم في محكمة أن يستعاض عن الحروب بقضايا ولذا كان لفظ وسلم من الألفاظ المترادفة في القرون الوسطى ولقد كان للسنة في بعض البلاد (مثل نومانديا وإنجلترا ونابل وإسبانيا) من الاقتدار ما يستطيع معه أن يكره الفرسان أن يحفظوا السلم لسنة أو لندوق وحاول الأساقفة في البلاد الأخرى أن يقنعوا الفرسان بتوطيد سلام الله ولكنهم لم يفتحوا أن يؤسسوا محكمة منتظمة.

فإذا اختصم اثنان من أرباب الأملاك قد يقرر جيرانهما أن يفصوا الخلاف بينهما بواسطة محكين أو أن يكون سيدهما من المنطقة بحيث يكرههما على الثول أمامه وفي تلك الحال ينظر في الخلاف ضباط قصره وبعض الفرسان اخبازين وهذا ما يسمى محكمة السيد ولكن هذا الفصل متقطع وغير نافذ أحياناً لأن من يخسر في الحكم لا يسعه إلا أن يعبد إلى القتال. فقد كاتن هوغ في القرن الحدي عشر أحد التابعين لأسقفية كامبري يستوقف تجار المدن ويقطع لحامهم ويطلب الفداء منهم ويخرب قرى الأسقف. فطلب سيده هذا ثلاث مرات متتابة ثم مثل بين يديه ولكن أبي أن يعطي أقل

تعويض فحكم فرسان محكمة الأسقف عليه بأنه يؤخذ من لإقطاعه فلم يهتم هوغ بالأمر وعاد إلى منزله وبعد مدة أوقف الأسقف بالذات.

المبارزة - كانت قضية من القضايا التي ينظر فيها الفرسان في محاكمهم أشبه بحرب فتى اجتمع الحصان يتضارب أحدهما وصاحبه ومن فاز ربح القضية وكان يذهب القوم إذ ذاك إلى أن الله كتب له الغلبة لأنه محق في أمره وهذا ما يستونه بالقتال أو المبارزة. فالقضاة الذين تتألف منهم المحكمة يعبدون إلى أن يخفوا الحصين بأنهما يزعمان بأن مع كل منهما الحق وأن يخطوا الأرض التي تقع فيها المبارزة وأن يراقبوهما فالحكمة تأمر بالمبارزة لا عند حدوث جناية أو إهانة بل لبث في أمر محنة لمن تكون وفي أي قاعدة في العدل يجب إتباعها. وقد تبارز حصان في القرن الثالث عشر بأمر الفونس منذ قشتالة لحكم فيها إذا كان يدخل القانون الروماني إلى حكمه. وكان الفرسان يعتبرون المبارزة أسهل ذريعة وأشرفها لبث في قضية فلم يكن إذ ذاك مناقشة تجري ولا حجة تدل بها فلا جواب يجاب به الخصم إلا القتال.

ولم تؤلف المبارزة فقط في محاكم الفرسان بل في محاكم المدن بين أهل الطبقة الوسطى وأحياناً بين الفلاحين في البرية فيتسلح المقاتلون بالترس والعصى وإذا كان أحد الحصين ليس من القوة بحيث يستطيع البراز يعهد إليها إلى آخر يوب عنه فكان القتال يجري في باريز حتى في محكمة الأسقف ولقد وقع شك في هذه العادة فسل البابا أوجين الثالث رأيه فأجاب عنكم باستعمال عاداتكم.

ولقد تأصنت عادة البراز تأصلاً تعذر معه استصالتها ولما الغي البراز في المحاكم ظل ينظر إليه أنه الوسيلة الوحيدة في قضايا استرداد الشرف المثلوم فهو كالمروءة بقية ما أبقته القرون الوسطى من عاداتها ولم يبق إلا بفضل الإباء والمروءة.

حكم الله - لا يستطيع النساء أن يتبارزن وكثيراً ما يمنع منه الفلاحون وفي تلك الحال يعند القوم إلى استخدام ضرب آخر من ضروب أحكام الله. فبعد قداس أو سنوات تقام عنية لتوسل إلى الله أن يظهر الحق كأن يقتضي عني الرجل أو المرأة بأن يحمل حديد محمأة بضع خطوات وأن يغرس يده في إجانة ماء مغلي فإذا بحت يده بعد بضعة أيام من الجرح فحكم الله يكون له. وأحياناً كانوا ينقون به في مستقع الماء فإذا غرق فقد ربح وإذا غام فقد خسر وبيناهم عني أن ينقوه في الماء يستحلف الكاهن الماء بهذا الكلام: يا ماء أناشدك الله القادر الذي خلقك وأمرك بأن تقوم بحاجات الإنسان بأن تقبل هذا الرجل إذا كان مجرمًا بل اجعليه يطوف عني وجهك. وأحياناً يكفون بأن يبلع المشتكى عليه قطعة من الخبز والخبز بعد أن يكونوا استحلقوها بأن تبقى في حلق المشتكى عليه إذا كان كاذباً. وهذه الخن يسونها الحكم. وقد كتبت الكنية كتاباً في الطقوس لكل واحد منها ولما اجتمع الجميع العام في لاتران سنة ١٢١٥ أمر بإلغاء تلك الكتب.

الكنية في القرون الوسطى

تنظيم الكنية

الأسقفيات - احتفظت عامة المدن في المملكة الرومانية القديمة بأسقفياتها وأبرشياتها. وكلما كانت البلاد في ألمانيا تين بالنصرانية كان الملوك ينشئون كراسي أساقفة. فكنا أن الكنية كانت تحظر أن تقيم أسقفياً في غير المدينة كان القوم يؤسسون في آن واحد مدينة وأبرشية. وكانت الأبرشيات بأجمعها قديمها وحديثها غنية جداً فلها أملاك واسعة وقد تمكك أحياناً ولاية بأسرها وقد منح الملوك للأساقفة براءات يحكون بموجبها بلادهم بأنفسهم. وجاء في صك الإعفاء أنه ليش لموظف عام أن يدخل إلى ارض هذه

الكنيسة لا لجباية خراج ولا لنحكم ولا لنقض على العبيد والأحرار الذين يسكنون فيها. وبذلك أصبح الأسقف منكاً حقيقياً فكان أساقفة كولونيا وماينس وتريف ثلاثهم أكبر الأمراء في ألمانيا.

مجامع الرهبان - خضع قيسو الكاتدرائية (يسكن الكاتدرائية كل كنيسة في حاضرة أبرشية) أولاً للقف وأخذوا منذ القرن التاسع يعيشون عيشة مشتركة بحسب القاعدة التي جرى عليها الرهبان ومن هنا اشتق الاسم الذي أطلق عليهم وهو كاهن قانون أي الخاضع للقاعدة ومجامعهم هي مجامع الكهنة أو الرهبان. وكان الكهنة القانونيون يعيشون بادئ ذي بدء مما خصص لهم من الطعام واللباس ولما وهب القوم للمجامع عطايا أصبحت تلك المخصصات منكاً وكثيراً ما يكون متسعاً. فكان كل راهب قانوني يتمتع بدخل محصص يتيسر له به أن يعيش عيشة سيد ومعنى عاش فلان عيشة الكاهن القانوني أنه عاش في مهنة وبنهية وإذا استقلت الجماع عن الأساقفة أصبح القائسون عليها أيضاً أقبالاً ومنوكاً.

الأديار - ما من أبرشية في القرون الوسطى إلا وكان فيها عدة أديار للرهبان وكنهم محافظون على السنة التي سنّها القديس بنوا ولكن كانت كل أخوية تؤلف ديراً مستقلاً يرأسه رئيس. والدير عبارة عن مساكن للرهبان وبيت للرئيس وكنيسة ودار ضيافة (يتزلون فيها الغرباء) ومعامل ومخازن وبيوت الخدم والمزارعين فكان الدير على الأقل كناية عن قرية كبرى وأحياناً مدينة صغيرة (مثل لاربول وسان مسكان وفيزيلاي) ولنديار أملاك واسعة منتشرة وأحياناً في عدة ولايات فيبعث رئيسه إلى الأملاك القاصية يضعه رهبان للسكنى تحت إدارة رئيس عليهم وهذه الأديار الصغيرة التابعة للكبرى تسمى الطاعة. وتجري أحكام رئيس الدير بمعونة الرهبان المجتمعين في مجمعه ويكون

تحت يده في الدير الكبيرة رهبان لكل منهم وظيفة مدير الدير ونائبه وقيم الثياب وقيم الطعام وقيم الخزانة وقيم الكتب ورئيس المنشدین ومدير المدرسة فيعيش الرهبان بعضهم مع الآخر وعليهم أن يلتزموا السكوت إلا في بعض الساعات ويجتمعون قبل طلوع الفجر ليرتضوا بصلاة السحر عند الإشراق ثم يقومون بالفرض الأول ثم يحيي وقت القداس والصلوات كأحد أجزاء الفرض الكهنوتي وصلاة النوم. وإذا كانت سنة القديس بنوا يقضي بأن يعمل كل راهب كانوا يعنون بحوث الأرض أو ملاحظة خدمتهم أو صنع أمتعة لزينة الكنيسة أو نسخ المخطوطات. وقد وصف كثير من الرهبان عيشتهم في أديارهم ولكن الصورة تختلف باختلاف غنى الدير وفقره وجدته وقدمه وحسن إدارته وسوءها.

الخورنيات - لم تكن كنائس ولا قسيسون في غير المدن أيام الرومان ولما غدت البلاد مسيحية كنها أخذ كبار أرباب الأملاك والسادة ورؤساء الدير والأساقفة ينشئون بيعة ومعابد في محلاتهم فيعطي المؤسس لكنيسة قطعة أرض كافية تقوم بنفقات الكنيسة وطعام راهب ويصدق الأسقف على هذا التأسيس وعندئذ يخدم ككاهن تلك الكنيسة (يكون لمؤسسها وأعقابها الحق في تعيينه) أرواح أهل القرية ويجب على السكان أن يأتوا إلى كنيسته ويطيعوه والأرض التي يدير شؤونها راهب تتألف منها خورنية أو إدارة ولما تم هذا العمل (وكان ذلك نحو القرن العاشر في فرنسا) انقسمت جميع البلاد المسيحية إلى خورنيات كنها هي إلى اليوم وأصبح لكل قرية كنيسة أو تبعت كنيسة القرية المجاورة لها. ودخل الدين إلى المزارع الشاسعة واستطاع الفلاحون أن يتعبدوا بدون أطن يأتوا المدن وغدوا يقيمون صلواتهم في كنائس قراهم حيث يجتمعون وصارت أبراج أجراسهم وقبائها ترى من بعيد وتدعو الأجواس المؤمنين إلى الصلاة وهم أجراء

معمودية لتعيد أولادهم وقبور ليدفنوا فيها موتاهم وبين أظهرهم كاهنهم يعطيهم الدين ولهم قديسهم أو حامي كنيستهم وعيده عيد للقرية وكثيراً ما كانت تسمى القرية باسمه.

الحرم - كان رجال الدين في العصور الوسطى أغنى من العامة وأكثر قديماً وتعنيماً منهم ولهم مع هذه قوة لا تغالب وهو أنهم كانوا يناولون القربان الذي لا يسعي أحد عن تناوله ولم يكن على ذلك العهد ملاحظة وإذا حدث أحياناً لأحد العامة أن نشر على الكنيسة أو أنه أساء إلى راهب في حالة غضب فأنهم كنهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً في اليوم الآخر ويثوبون وينيبون لينالوا الغفران وكان رجال الدين يستعملون الأسنحة الروحية كما كانوا يسوئونها في تأديب الجناة والعصاة فكان آخرهم محروماً أي مطروداً من تناول القربان مع جمهور المؤمنين فكان الأسقف يقول إننا بموجب السلطة الإلهية التي منحها القديس بطرس إلى الأساقفة نبد فلاناً من حجر أمد الكنيسة المقدسة فيلن في المدينة وفي الحقول وفي بيته وعلى كل مبيح أن لا يكنه ولا يواكبه وعلى أي راهب أن لا يقيم له القداس ولا يناول القربان وأن يدفن كما يدفن الحمار كما أن هذه المشاعل التي ألقيناها من أيدينا ستطفى وأن ضوء حياته سيخمد إن لم يتب ويقدم توبة.

وقد بدء في القرن الحادي عشر باستعمال المتع الكنائسي عند السادة الذين كانوا يزدرون الحرم فكان رجل الدين يحرم من تناول القربان السيد ومحنته فلا يعقد عقد زواج في كل أرعده ولا يدفن ميت ولا يقرع جرس وينال المكان ما ينال سيدهم ولذلك يقضى عليهم أن يصوموا ويرسبوا شعورهم علامة على الحداد. وعلى هذه

الصورة كمن رجال الدين يكرهون السادة على أن يحترموا القوانين الدينية ويحظرون عليهم الاستيلاء على أرزاق الكنيسة.

إصلاح الكنيسة

اختلاط السلطات - كانت الميزة ضعيفة جداً في القرن الحادي عشر بين السلطة الروحية على الأرواح والسلطة الزمنية على الأجساد فلم يكن الأساقفة ورؤساء الأديار رؤساء دينيين فقط بل كانت لهم حصة كبرى من السلطة السياسية فكانوا لما يملكون من الأملاك يعدون في السادة العظماء أي حكاما على فلاحهم وأتباعهم من الفرسان ثم أن الملوك والأمراء وكنهم من رجال السيف كانوا في حاجة إلى رجال الكيسة في شؤون الحكومة المرتبطة فالأساقفة هم الذين كانوا يتولون عنهم ذلك فيجنسون في قصورهم يكتبون أوامرهم ويمنون أحكامهم ويحكمون. وبم يقف الأمر عند هذا الحد بل قد منح الأساقفة منذ عهد شارلمان نصيباً في إدارة الولايات وكان لكثير من الأساقفة في ألمانيا سلطة كنيسة الكونت. وهم مع حصولهم على سلطة سيد من العامة يخضعون لما يقضي به السيد. هم تابعون لذلك كالكونتية فيتحتم عليهم أن يقدموا لذلك كالكونتية منائح ويخدموا في الجيش وكان جيش الملك في ألمانيا مؤلفاً من فرسان أتى بهم أساقفة ورؤساء أديار ولكن الملك كان يضطرهم أحياناً أن يجيروا الدعوة إلى حمل السلاح بأنفسهم. فقد كتب فيليب الأول إلى دير سان ميدار أي سواسون أن القاعدة القديمة تقضي على فرسان الدير أن يحضروا بقيادة رئيس الدير للاشتراك بالحملات الملوكية وأن على رئيس الدير أن يخضع لهذه العادة أو يخيل. فاستقال رئيس الدير وجاء خلفه إلى الجيش.

الفكر السائد إذ ذاك - كان الأساقفة ورؤساء الأديار في القرن العاشر من أبناء السادات في العادة والكهنة والقسيسون من أبناء الفلاحين وخلقوا في الرهبنة بدون ميل منهم بل لجرد طاعة أمهم أو للاستمتاع بنعم الكهنة. فكانوا يأتون إلى كنائسهم بأخلاق العامة فيقصون أوقاتهم في الصيد والشرب واللعب والتقاتل ورؤساء الأديار يبددون أموال الدير ليعولوا عصابة من المشردين وكثير منهم يتزوجون ويقفون كنيسة على أولادهم. وقد شوهد في نورمانديا كهنة يتنازلون عن دورهم بائنة لبنائهم وكثير منهم كانوا أميين يحرفون كلام القديس بجهلهم وابتاع معظمهم مناصبهم من أناس من العامة وكانوا يبيعونها إلى غيرهم من رجال الكهنة. وتسنى هذه التجارة بيع المقدسات الروحية (سينونية) وأصبح الإكليركيون الخاصة جفاة غلاظاً جهلاء طماعين كالعامة وكان يقال أن الكهنة قد سرى إليها الفكر السائد في ذلك القرن.

رهبات جديدة - أوجس رجال الكهنة المخلصون لأدائها خيفة من هذه الفوضى فحسبوا أرباب الغيرة منهم على تأسيس رهبانيات جديدة فجاء بعضهم في هذا العالم الفاسد وهربوا إلى البادية مثل القديس برونو الذي جاء منة شمالي فرنسا وتوغل في جبال دوفينيذ المتوحشة في بضعة من رفاقه وأسس رهبنة القلايين (شارتر أو الكروتوسين) وأسس أسند عظماء الطليان القديس رومولاد في جبال طوسكونيا رهبنة الكامالدوين. وأراد آخرون استئصال هذه الفوضى مباشرة بعد بإدخال رجال الدين تحت قاعدة فبدءوا يشددون في نظام أحد الأديار ليكون نموذجاً في إصلاح غيره. وأهم مرائز الإصلاح كان دير كلوني أقدم الأديار وقد جرى إصلاحه في القرن الحادي عشر ودير ميتو الذي أسس سنة ١٠٩٤ وكلاهما في إقليم بورغونيا ودير كليرفو المؤسس سنة ١١١٥ وبرموتره المؤسس سنة ١١٢٠.

ولم يقصدوا من ذلك أن يستعضوا عن القاعدة القديمة التي وضعها القديس بنوا بل على العكس أن يضعوها موضع العمل بإنفاذ نظام العمل على الرهبان والطاعة والفاقة مما بطل في الأديار بما تسرب إليها من أفكار ذاك القرن. فبنع مؤسس دير كنوفو القديس برنارد رهبانه من لبس الفراء والدثر والقبعات وقضى بحظر جميع أنواع الزينة حتى في الكنائس ولم يسمح بغير صلب من الخشب المنقوش وشعبدان كبير مشعب من الحديد ومباخر من الدحاس. وبقي الرهبان كلهم بعد الاصلاح من البندكيين وتقرر لتوقيف الخل الذي دخل على أيسر وجه إلى دير مستقل أن ترجع لندير المصلح إدارة الأديار المؤسسة أو المصححة على يده. وهكذا أصبحت أديار كنوفي وسيتو وبرمونتره زعيمة رهبنة ولم تعد أديار رهبنتها أدياراً كبرى بل بيعاً ومعابد تخضع لرئيس واحد وتبعث بمفوضين من قبلها يمثلونها في الاجتماعات العامة في الرهبنة. فنجحت الرهبات في أسرع ما يمكن فكان لكونوفي في القرن الثاني عشر أربع مائة راهب وينظر في شؤون ألتني دير وكان لسيو تحت طاعتها نحو ١٨٠٠ دير منتشرة في جميع أوروبا وعند ذلك بدأت المنافسة بين رهبان كنوفي السود ورهبان سيتو البيض. وكان هؤلاء الرهبان المصلحون هم الذين اضطروا ببقية رجال الدين أن يصحوا أخلاقهم وهم الذين عضدوا البابا أحسن عضد وحنوا الميحين كافة عامتهم وخاصتهم أن يحنوا رؤوسهم لسلطته. فقد كان غريغوريوس السابع العظيم المصلح الحاكم من رهبان كنوفي والقديس برنارد اللاهوتي العظيم في القرن الثاني عشر من رهبان سيتو.

كان من العادة القديمة في الكنيسة إذا أقرأ أحد المؤمنين بخطيئة ارتكبها أن يقضي عليه القسيس بالتوبة قبل أن يغفر له ويدعه يدخل الكنيسة بين الناس وتجري هذه التوبة عنية إذا كانت الخطيئة ارتكبت كذلك. وكتب في القرن الثامن كتب توبة فيها

العقوبة المقدرة لكل خطأ . مضت قرون وهذه التوبات مثال القسوة وإذلال النفس ففي بعض التوبات التي تطول سبع سنين كان يتحتم على التائب في السنة الأولى أن يقف حافياً أمام باب المدينة يركع أمام الداخين بتوسل إليهم أن يصنوا له . والتوبات عبارة عن الصيام وتريد صنوات وضرب البدن بالعصي ثم انتظمت هذه الطريقة فرأى رجال الكنية أن ثلاثة آلاف ضربة بالعصا تعادل سنة في التوبة . وقد اشتهر أحد نساك الطليان في القرن الحادي عشر واسمه دومينيك ولقب بالدارع بأنه يتمكن في خمسة عشر يوماً أن يقوم بمئة سنة من التوبة وأقروا أيضاً على ابتغاء التوبة بالأعمال الصالحة مثل الحج ومنح العطايا إلى الكنايس وكانوا يقولون أن لتقديسين من الفضائل أكثر مما يجب لخلاصهم وهذه الفضائل الزائدة قد تألفت منها كثر الغفرانات التي بها تشتري خطيئات المخطئين . ولدى الكنية هذا الكثر في الغفران تنفق منه على المؤمنين وفي وسعها أن تفصل منه غنى أرواح الموتى التي يراد تطهيرها وتطلب لقاء ذلك بعض المال . فالخاطئ لا يشتري الغفران (كما قيل ذلك خطأ) بل يبتاع التوبة فقط وبعبارة أخرى أن الكنية تعطيها له . هذه هي نظرية الغفرانات . فقد قال داميانوس إننا بما نأخذ من أراضي التائبين نحجم كمية من التوبة بحسب ما يعطوننا . وعلى هذا كانت التوبة قسمين أحدهما وهي السهلة (ما ينال الغفران من العطايا والحج) وهكذا يكفي الأرواح الفاترة وأوقات السكون والآخر وهو بربري (ضرب العصي) تظمن إليه الأرواح المتحسة وقد كان الغيورون من المسيحيين مثل القديس لويس والقديسة إليزابيث يبنون قيماً من الشعر ويضربون بعضاً يد من يعترفون له . وفي أوقات الفزع الديني خلال الأوبئة والحروب تتألف عصابات من المضروبين بالعصي يجتازون البلاد واكتافهم عريانة وهم يضربون أنفسهم حتى تسيل دماؤهم .

انفصال الكنيسة الرومية - مضى دهر طويل لم يؤلف المسيحيون الروم في بلاد الشرق سوى كنيسة واحدة مع مسيحي الرومان في الغرب فكان لهم عدة بطارقة في الآستانة والإسكندرية والقدس وأنطاكية ويعترفون أيضاً بتقدم أسقف رومية ولكن بعد أن فتح العرب مصر وسورية لم يبق في الإمبراطورية سوى سوى بطريرك واحد هو بطريرك القسطنطينية الذي أخذ يناقش البابا. ولما قطع البابا العلاتق مع الإمبراطور في القرن الثامن بشأن عبادة الصور بدأ المسيحيون الروم أن لا ينظروا إلى مسيحي الغرب أخوانهم وكان بين الفريقين من أهل العالم المسيحي بعض فروق خفيفة في أمور التعبد والمعتقد فالروم يعتقدون أن روح القدس لم ينشق إلا من الأب والغريون يعتقدون أنه ينشق من الأب والابن معاً وأن الابن من مادة الأب نفسها. والروم يستعملون الخبز في المناولة والغريون خبزاً بدون خمير والروم يسبحون بزواج القموس والغريون يحظرونه.

وظهرت تلك العدواة الخفية بين الكنيستين جهاراً في القرن التاسع فعزل الإمبراطور أغناس بطريرك القسطنطينية وأقنم عرضاً عند فوتيوس أحد قدماء الساسة والقواد وهو أكثر الناس تعصباً في زمنه ولم يكن راهباً بل اجتاز درجات الكهنوت كلها في بضعة أيام فتحزب البابا نقوى للبطريرك المقال وحرم فوتيوس وأشياعه فجمع فوتيوس في الآستانة جمعاً حكماً على معتقدات اللاتين الخاصة بأنها إلحاد وحرم نقولا (٨٦٧) فاعتزم البابا فرصة تبديل الإمبراطور ليجمع في القسطنطينية جمعاً مكروباً (٨٦٩) قضى بعزل فوتيوس وفسخ أعماله. وفي سنة ٨٧٩ فسخ مجمع جديد أوامر مجمع سنة ٨٦٩ وأعلن أن البابا ليس سلطاناً على الكنيسة إلا في الغرب فأجاب على ذلك بحجج فوتيوس الذي انقطع إلى أحد الأديار وبدأ بذلك أن التقاطع بين الكنيسة أصبح مبرماً

ولكن الباباوات في أواخر القرن التاسع أصبحوا في أيدي بارونات رومية فأمسوا من الضعف بحيث لا يستطيعون المقاومة في هذا الباب ولما شعر البابا أواسط القرن الحادي عشر بتوطيد مركزه في رومية والغرب بعث بنائين من قبله يضعان باحتفال في كنيسة القسطنطينية براءة الحرم الذي صدر من البابا عنى البطريرك وأشياعه (١٠٥٤) فأبت كنيسة الشرق أن تخضع وظل المسيحيون منذ ذاك العهد منقسمين إلى كنيستين الكنيسة اللاتينية أو الكاثوليكية التي خضعت للبابا والكنيسة الرومية أو الأرثوذكسية التي اعترفت ببطريرك القسطنطينية وليس الروم فقط هم أتباع هذه الكنيسة بل الروس والبنغار والصرب والرومانيون.

الإلحاد - كان الملاحدة (المراطقة) نادرين متطرفين في القرون الأولى والوسطى فبدأوا في القرن الثاني عشر يتكاثرون ولا سيما في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا وانقسموا إلى شيع مختلفة يصعب علينا تمييزها ولا نعرفها إلا بما ينقله عنها أعداؤها فمنهم من اقتبسوا من ملاحدة بنغاريا مذهب المانوي الفارسي القديم في تنازع الخير والشر وآخرون هم الكاتاريون (الأطهار) فقراء ليون الفورديون كانوا ملاحدة بغضاً بفساد رجال الكهنوت في عصرهم وزعيم شيعة الفوديين فاللوس تاجر غني من أغنياء ليون كان ترجم له الكتاب المقدس باللغة العامية فأحب عملاً بحكمة الإنجيل أن يوزع جميع ما يملك عنى الفقراء وأخذ يدعو إلى الدين عنى رغم منع الأسقف عليه ذلك وكان أنصاره يرفضون كل ما لا يروته مسطوراً عندهم في التوراة مثل الصور والماء المقدس والقديسين والذخائر والمظهر والصوم والغفرانات وكانوا يقولون أن الكنيسة الرومانية ليست كنيسة المسيح بل كنيسة الشيطان وما الأخبار إلا فريسون يجب أن لا يملكوا شيئاً من حطام الدنيا بل أن يعملوا كل عمل الخواريون وأن لا يقودوا إذ ليس في

الكنيسة الحقيقية إلا أهل التساوي فالعامة ليست دون الخاصة ولهم الحق أنه يشعروا كما كان يشير الرسل والعامي التقي هو أشد عراققة في الرهنة ويحسن أن يناول القربان من رجال الكهنوت أهل الخطيئات الحاكسين المتحكين بالكنيسة فسر القربان المقدس والغفرانات لا فتدة فيه لأن الإيمان والتوبة يكفيان في السلامة. وكانت قوة هؤلاء الملاحدة باختلاطهم مع الشعب مباشرة يكتونه بنسائه ويعيش وعاظهم عيش الفقر والثدة المخالفة لأخلاق أحد رجال الدين الأغنياء الفاسدين أحياناً ولكن معظم المسيحيين كانوا يفرعون من اسم إلحاد وطفقوا عن رضى يخدمون رجال الكهنوت ليقصوا على الملاحدة ودعا البابا فرسان فرنسا فأعلنوا عليهم حرباً صليبية كما أعلنوا على المسلمين فذبحوا جميع سكان بزيير على نحو ما فعل الصليبيون في الشرق من ذبح الرجال والنساء في أورشليم. وقد حرم البابا الإمبراطور فريدريك الثاني في ألمانيا وهو نصف عربي بشدته فاحرق كل من اشتبه فيهم أنهم ملحدون.

ديوان التفيش الديني - بعث البابا إلى مدن إقنيم لانكدوك بموظفين عهد إليهم البحث عن يشبه بهم بالإلحاد وذلك ليستأصل الملاحدة عن بكرة أبيهم ومنحهم كل سلطة في إلقاء القبض على كل شخص ومحاكمته والحكم عليه وأطلق لهم الحرية أن يعملوا بما يرونه مناسباً مباحاً لهم أن يفتقر بعضهم لبعض إذا بدرت منهم بادرة وهؤلاء المفتشون (وفي العادة أن يكونوا قسوساً) يستخدمون الرجال الذين يرمون بالزندقة ويسألونهم بدون أن يقولوا لهم أسماء من أظهر أمرهم فإذا أتى المشتبه به الكلام يسجنونه ويضيقون عليه الخناق ولقد قال أحد هؤلاء المفتشين ولطالما رأيت أناساً حبسوا على تلك الصورة سنين كثيرة فانتهى بهم الحال أن اقروا أيضاً بأجرام لهم قديمة وعادوا أيضاً ليحبسهم على الإقرار يستعملون معهم طريقة التعذيب التي تركت منذ عهد الرومان

وأخذت بالاستعمال عند ظهورهم وكانت محكمة التفيش تحكم بطريقة عرفية بدون استئناف تحكم على بعضهم بغرامات فاحشة أو بحج بعيد وعلى غيرهم أن يحملوا على ثيابهم صناديق صفراء تحاط عليها فتشعر بأنهم مشتباه بآخرهم أمام القوم ويقضى على الآخرين أن يطوفوا تائبين يحملون العصي ليجندوا. وغيرهم يسجنون مؤبداً في مطبق صغير مظلم على خبز الكرب وماء العذاب وبعضهم يحرقون في وقود الحطب وديوان التفيش لا ينفذ الحكم عليهم بنفسه بل يكفي بأن يدفعهم إلى القاضي المدني العامي وهو يعيدهم إلى الجلاء.

الرهبان الشحاؤون - أصبحت الرهبنة الدينية التي حدثت في القرن الحادي عشر على الفساد المستحوز غنية على فاحشاً فكان رئيس دير كنوئي يسبح في موكب مؤلف من ثمانين فارساً والرهبان البيض الذين أرسلوا لتصير الملاحدة قد حنوهم على العصيان بما رأوه من بدخهم ولذا دعت الحال إلى وضع نظام جديد وذلك بما قام به القديس فرانسوا الإيطالي والقديس دومينيك الإسباني.

فكان القديس فرانسوا (ولد سنة ١١٨٢) ابن تاجر غني في آسيز تحنى عن المال وراح إلى المدن يستوكف الأكف ويدعو الناس. فظنه القوم مختل الشعور ولعنه أبوه ولكن لين جانبه ولطفه وحاسته لم تلبث أن عقدت القلوب على حبه فأعجبت به وجاءه من تلقوا دعوته زرافات فعزم أن يضم شتاتهم وأنشأ رهبنة الأخوان القاصرين (الفرنسيكان) وكان القديس فرانسوا يعيش عيش التبت يسهر ويصلي ويصوم ويلبس مسحاً ويمزج رماداً في طعامه لكلا يئذه طعمه ويمجد نفسه كل ليلة بسلاسل من حديد (ثلاث مرات واحدة عن نفسه وأخرى عن أرباب الخطايا الأحياء وثالثة عن أرواح المطهر) ومات مضجعا على الأرض بلا وطء وكان خلافاً للنجباء منخاض

الجناح راغباً في خلاص غيره يريد أن يكون من جماعته الفرنسيسكان نساك أبداً فقراء ولكن نساك يعيشون بين أظهر الناس ليحرضوهم على التقوى قال لتلامذته: اذهبوا اثنين اثنين مبشرين الناس بالسلام والتوبة للعفو عن خطيتكم. لا تخافوا شيئاً لأننا نبدو للناس كالأطفال أو المعتمدين ولكن بشروا فقط بالإناية والتجدد وكونوا على ثقة بأن روح الله الذي دبر العالم ينطق بنسانكم. وكانت قاعدته بسيطة للغاية وهو أن لا يملك الأخوان شيئاً بل أن يمضوا في هذا العالم كالحجاج والغرباء يخدمون الله بالفقر له والضراعة إليه والصدقات قصارى ما يتبنفون به ولا يخرجون من حائلهم لأن السيد المسيح سن لنا من سنة الفقر. وينس الفرنسيسكان لباس الحاجين وهو عبارة عن ثوب من الصوف الغليظ له قبعة ومن هنا اشتق اسمهم (الكوشيون) وينسبون في أرجلهم نعالاً ويتنطقون بحبل (ومن هنا سموا أيضاً بالحاليين) ولا يعيشون إلا من الصدقات.

وكان القديس دومينيك (ولد سنة ١١٧٠) من النساك أيضاً لا يشرب الخمر وينس مسحاً مع سنسنة حديد ومات مضطجعاً على الرماد وكان واعظاً وعظ عشرين سنة في البلاد الألبية لهداية الملاحدة وهناك رأى كيف يطع الشعب لسناخ كلام الله وهو يتألم لما يرى من بدخ رجال الكهنوت. ومن سنة السير على القدم باللسة ساذجة للغاية وأراد أن يكون على شاكته في الأمة رسل مبشرون فأنشأ جمعية الأخوان الواعظين جعل شأنهم أن يتكفوا في كل مكان بما فيه سلامة الأرواح ووضع الفقر قاعدة لهم.

وهكذا كان الفرنسيسكان شحاذين فأصبحوا واعظين والدومنيكيون واعظين فأصبحوا شحاذين وكانت الرهبان تتشابهان من وجوه كثيرة وكانتا كلتاهما منظمتين ولهما قائد يقودهما يطبع البابا مباشرة ولكن الدومنيكيين كانت علاقتهم بالسادة والملوك أكثر والفرنسيسكان بمجهور الشعب وامتدت كلمة هاتين الجمعيتين امتداداً لا يكاد يصدق

فتم تدخل سنة ١٢٧٧ إلا وكان لندومنيكيون ٤١٦ ديراً وكان للفرنسيكان سنة ١٢٦٠ - ١٨٠٨ أدياراً وفي كل دير اثني عشر راهباً عنى الأقل وإذا كان اعتمادهم عنى الله الذي كان مريهم وخواتهم كانوا يقبلون في جهنهم من الإخوان ما جاءهم فمن يقصدوهم يعطوهم ثوباً وحبالاً وما عدا ذلك فيكون أمره للنعاية الإلهية. ولقد عاش قدماء الرهبان خارجين عن العالم أما الرهبان الشحاذون فاختلطوا بالخنس وأذن لهم البابا أن يبشروا ويعرفوا ويدفوا فآخذ المؤمنون يهرعون إليهم تاركين قسوسهم المعتادين وكان بذلك ثورة عظيمة وطدت سلطة البابا كل التوطيد.

عدل الكيسة - كان في كل أبرشية منذ القرن الثالث عشر محكمة للكنيسة يجلس فيها مندوب الأسقف للحكم فينظر فيها في عامة القضايا التي لها مساس بأحد الإكليزيكيين إذ لم يكن يقبل أن عامياً يرفع يده عنى رجل من رجال الله فالإكليزيكي إذا ارتكب جرماً لا يحاكم عنده إلا متد وهذا من جملة امتيازات رجال الدين امتيازات يرغب فيها لأن قضاة الكيسة لا يحكمون بالإعدام بتاتاً وكثيراً ما كان أحد الأشقياء فراراً بنفسه من المشتقة يدخل في درجة من درجات الإكليروس ويتعلم صلاة باللاتينية ويظهر بمظهر ديني وقد امتدت سلطة اخاكم الكنائسية عنى العامة. فالكنيسة التي تدير أسرارها القربان المقدس يجب أن تبت في كل المسائل التي لها علاقة بهذا الشأن ومثل هذه المسائل ليست بقليلة. فقد أصبح الزواج منذ ظهور الدين المسيحي سراً من أسرار القربان فيأتي الزوجان في شهودهما يقفان تحت دهنير الكنيسة فيسألها الكاهن فيما إذا كانا يقبلان الزواج فيقول الزوج أنا يا هذه أرضاك زوجة وتقول العروس أنا يا هذا أرتضيك بعلاً ويأتي أهل المرأة ويضعون يدها في يد زوجها ويبارك القيس خاتم الزواج إشارة العقد ثم يدخلون كنهم الكنيسة فيتلو القيس القداس عنى الزوجين

الراكعين المستورين بشعار خاص وهذه الحفلة جعلت الزواج في يد الكيسة وكانت تكفي في عهد الرومان إرادة الزوجين لعقد القران كما يكفي إرادتهما لفسخه أما المسيحيون فعلى العكس لا يستطيعون الزواج إلا إذا سمحت الكيسة (وكثيراً ما تحظره حتى بين الأهل البعيدين) فإذا تزوجوا كان زواجهم طول العمر لأن سر الزواج لا ينحل. وهكذا بطل الطلاق وإذا تعذر التام الزوجين لا تسمح الكنيسة إلا بالتفريق بينها ولا تحل رابطة الزواج مطلقاً.

والكيسة تحكم أيضاً في الوصايا لأن الرجل لا يتأتى له أن يوصي إلا بعد الاعتراف والاعتراف سر من الأسرار وتأتي الكيسة أن تدفن من لم يعترف ولم يوص. والعادة تقضي أن يكون في كل وصية وقف يحس للكنيسة وترجع جميع القضايا في الوصية إلى محكمة الكيسة. والكنيسة تحكم أيضاً على العامة المتهمين بجريمة تخالف الدين أمثال الزنادقة والخرمين والمرايين (وذلك لأن الكنيسة تحظر الربا) وزعم أينوسان الثالث أن من واجب الكيسة أن تحكم في جميع الخطايا وكانت محاكم الكيسة إلى القرن السادس عشر أكثر عدلاً من المحاكم العادية.

البابوية

البابوية - الباباوات في القرن العاشر كسائر أساقفة إيطاليا سقطت تحت سلطة العامة من السادات الذين هم نصف لصوص في رومية فكانوا يخلون بعضهم بعضاً في خرائب المعاهد القديمة ويترافرون على اختيار البابا الذي يشاؤون. فكان الكرسي المقدس منكأ لأسرة من البارونات زمناً طويلاً ونساء تلك الأسرة تيودورا وماروزيا تتخجان الحبر الأعظم فشوهد بابا في الثانية عشرة من عمره وآخر باع البابوية من خنق وقد جعل الإمبراطور هنري الثالث حداً لهذه الفصائح وذلك بأن أخذ على نفسه تعيين البابا وما

كان أنصار الإصلاح يرضون أن تكون أرقى مناصب الكيسة خاضعة لمنطة رجل من العامة وقد وقف ليون التاسع الذي نصبه ابن عمه الإمبراطور بابا غنى أبواب رومية بصفة حاج وأراد أن يجري انتخابه بحسب القانون من قبل رجال الإكليروس وشعب رومية ثم قرر مجمع لاتران سنة ١٠٦١ أن يجري انتخاب الباباوات في المستقبل بمعرفة أساقفة المدن الصغرى في بلاد الأقاليم الرومية وأن يصدق الإمبراطور على انتخابه ولكن لم يثبت هذا القرار أن صرف النظر عنه. وهذه القاعدة في الانتخاب التي جرى العمل عليها بعد قد جعلت للبابوية استملاً عن شعب رومية والملوك الأجانب. ولما أصبح البابا مستقلاً أخذ يظهر الكيسة من روح العصر بجمع زواج الرهبان وبيع الأشياء الروحية وتولية العامة للبابا.

خصام على التولية - تقضي القوانين القديمة في الكيسة أن ينتخب الأسقف بمعرفة الكهنة القانونيين ورئيس الدير بمعرفة رهبانه وإذا كان لكل أبرشية ولكل دير أملاك واسعة أعطاهم له الملك على سبيل الإقطاع وكان الملك ولاسيما في ألمانيا يطالب بحق تعيين من يستتبعون بهذه الإقطاعات فإذا مات أسقف أو رئيس دير يحمل الكهنة القانونيون أو القساوسة إلى الملك علامات المنصب الأسقفي أو الرئيس وهي العكاز ورمز السنطة والخاتم ورمز اتحاد الحبر مع الكيسة فيختار الملك من يريده وفي العادة أنه يختار أحد رجال الكيسة في قصره ويخلفه يمين التبعية له ويوليده أي يمكنك زمام منصبه بأن يدفع إليه العكاز والخاتم. وهذه العادة قد ثارت لها المصنعون في الكيسة. قال البابا أوربانوس الثاني أمن المسكن أن تكون الأيدي التي تشرفت بالشرف العالي في إيجاد الخلق (كذا) بحيث يؤول أمرها إلى العار بالخضوع إلى أيدي منوثة بالسلم والدم. وما معنى قبول منصب كنائسي من عامي إلا الاتجار بالأشياء المقدسة وبذلك ارتكاب الخطيئة

المبينة في بيع هذه المقدسات فطالب البابا من ثم أن يتخلى الإمبراطور عن انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديار ليكون انتخابهم بحسب القواعد القانونية. وكان الإمبراطور يجيب على هذا المقترح بأن الأبرشيات والأديار جزء من الأملاك الإمبراطورية ولالإمبراطور وحده الحق في أن يوليها من أراد. وعلى هذا الوجه ثار بين الإمبراطور والبابا خصام على التولية. وأنصار البابا في مطالبه القسيسون وأنصار الإصلاح وأنصار الإمبراطور الأساقفة ورؤساء الأديار في ألمانيا ولومبارديا أتباعه والقساوسة المتزوجون وعندما حضر آسقف كوار سنة ١٠٧٥ لينع رئيس أساقفة ماينس الأمر البابوي في حظر الزواج على القسيسين قام جميع الإكليروس الذين كانوا حاضرين الجنس مغاضبين شاتميين رئيس الأساقفة ومناعيه من قبول هذا الأمر. ودام الأخذ والرد في ذلك نصف قرن (١٠٧٥ - ١١٢٢) وتعذر التوفيق فيه بسبب حقوق مداخيل الكيسة أو سلطة الأساقفة السياسية وقد حل البابا بإسكال الإشكال بأن قرر تنازل الأساقفة عن المدن والكونتيات والتقود والمكوس والقصور والأملاك والحقوق التي يعطيها الإمبراطور لهم فتم عرض رجال الإكليروس عن هذا النظام ولما عقد الصنع سنة ١١٢٢ احتفظ الأساقفة بحقوق مداخيلهم وسلطتهم السياسية فصح الإمبراطور بانتخاب الأساقفة ورؤساء الأديار من قبل الكهنة القانونيين أو القسوس وأن يعطوهم العكاز والخاتم ولكنه أبقى حق توليتهم بالعزم كالأمراء من العامة.

مناوشات البابا مع الإمبراطور - كان البابا والإمبراطور متفقين على أن يحكموا مشتركين كمن وقع على عهد شارلمان فتم يكن من حاجة لتسيير سلطة أحدهما عن الآخر وتحديد حقوق كل منهما وكان يقال أن الله أعطى سيف السلطة الزمنية للإمبراطور وسيف السلطة الروحية للبابا ليحكموا العالم معاً ولكن عندما استعنت

جدوة الخلاف بين البابا والإمبراطور اقتضى أن يتساءل الناس ما هي حقوق السنطة الروحية والسنطة الزمنية وعند أي حد تقف. وهي مسألة صعبة لم ييسر للعصور المقبلة أن تحل عويصها ولا تزال تتناقش فيها تحت اسم صلات الكنيسة بالحكومة.

ولقد كان الناس في العصور الوسطى يسيئون فهم سطتين متساويتين مستقنتين وهل البابا أو الإمبراطور هو الذي يحكم على الآخر وكل منهما يزعم أن سلطته رفيقة سامية فكان الإمبراطور وارث القيصرية والملقب بالقاهم يطالب بحق الزعامة على العالم أجمع والبابا يقول أن الله بإعطائه إلى القديس بطرس الحق المطلق أن يحل ويربط في السماء وعلى الأرض لم يستثن أحداً بل أخضع إليه الأمراء وجميع دول العالم وولاه أميراً على ممالك الدنيا. والبابا أسمى مقاماً من جميع الأمراء وهو قاضهم فني وسعد إذا رأهم غير لاتقين للحكم أن يحرمهم وأن يعزله وأن يجعل رعاياهم في حل من إخلاص البيعة لهم. وقد نفذ غريغوريوس السابع هذه الحكمة بعزل هنري الرابع. فطال الخصام بين السنطتين فبدأ في القرن الثاني عشر على التولية ودام بشأن حقوق الإمبراطور على مدن لومبارديا إلى سنة ١٢٥٠ فعزب الإمبراطور لأن سلطته على العالم وهمية ولم تكن له سلطة في ألمانيا وإيطاليا ثم أنه عجز عن أن يبذل له الطاعة أمراء الألمان ومدن الطليان.

نفوذ البابا - أصبح البابا في القرن الثالث عشر وسنده رجال الكهنة الذي قوي بالإصلاح والتهديب زعيم العالم المسيحي بلا منازع فهو بصفته نائب المسيح يحكم على رجال الإكليروس كافة وهؤلاء يحكمون على جمهور من المؤمنين وحفظ لنفسه الحق أن يجمع أجماع ويعزل الأساقفة ويغفر لكبار المجرمين ويعطي ما ينزوم من النفقات فيتناول القربان على عرش عالٍ ويقبل جماعته رجليه ولرسائله قوة الشريعة في الكنيسة كلها

واليك كيف تحدد سنكته قال إينوسان الثالث: لقد وضع الخالق في سماء الكنيسة منصين أعظمها البابوية فهي تحكم على الأرواح كما تحكم الشمس على النهار واقنهما المنك فهو على الأجسام كالقمر والليل فالبابوية مفضنة على المنك كما تفصل الشمس على القمر. وقد عهد سبحانه وتعالى إلى القديس بطرس أن يحكم لا الكنيسة العامة فقط بل العالم فكما أن جميع مخلوقات السماء والأرض والجحيم تثنى ركبتيها أمام الله هكذا كلهم يجب أن يخضعوا لاتبه حتى لا يكون في الأرض سوى قطع واحد وراع واحد.

وقد كتب بونيفاس الثامن سنة ١٢٩٦ إلى منك فرنسا يقول: اسمع يا ولدي كلام أب شفق وإياك أن تعتقد بأن ليس فوقك يد وأنت غير خاضع لرعيم رجال الدين. وكتب سنة ١٣٠٠ في المنشور المشهور أن الكنيسة واحدة هي جسم واحد ليس له إلا رأس واحد لا رأسان كالسخ هو خليفة القديس بطرس عندنا الإنجيل أن في الكنيسة سيفين زمين وروحي تفعل الكنيسة ويد البابا أحدهما والثاني الكنيسة ويد الملوك بأمر البابا.

مضى القرون الأولى وليس في الكنيسة سوى قوانين أي قواعد وضعتها أجمع وعندما عرف البابا سلطته إلى جميع رجال الإكليروس أصبحت أوامره قوانين للكنيسة على نحو ما كانت قديماً أوامر الإمبراطور الروماني شرائع للسلطة وقد جمع كراتين الراهب الإيطالي في القرن الثاني عشر الأوامر التي نسبت لقديما الباباوات وألف منها كتاباً سماه الديكري أي الأمر. فزاد عليه الباباوات في القرن الثالث عشر عدة مجاميع جديدة مؤلفة من رسائل الباباوات التي ظهرت بعد جمع الرسائل الأولى وهكذا فكما أن

يوسيتيانوس ألف مادة الشريعة المدنية ألف الباباوات مادة الشريعة القانونية التي ظنت قانوناً لنكية.

المدنية الشرقية في الغرب

تقدم شعوب الشرق في القرون الوسطى - ليثل القارئ لعييه المدينتين النتين كانتا في القرن الحادي عشر تقتسمان العالم القديم ففي الغرب مدن حقيرة صغرى وأكواخ فلاحين وقلاع لا هندسية لها وبلاد مضطربة على الدوام بالحرب لا يتأتى أن يسير فيها السائر عشرة فراسخ بدون أن يسلب وينهب في الشرق مدن القسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد وجميع مدن ألف ليلة وليلة بما فيها من قصور المرمر والمعامل والمدارس والأسواق والحدائق المتحدة على بضعة فراسخ وبرية تروي أحسن إرواء غاصة بالقرى والضياح وحركة التجار التي لا تنقطع فتراهم يذهبون بسلام من إسبانيا إلى فارس ولا شك أن العالم الإسلامي والعالم البيزنطي كانا أغنى وأحسن نظاماً ونوراً من العالم الغربي فكان المسيحيون يشعرون بنقصهم في التهذيب ويعجبون ببلاهة بما يبدو لهم من غرائب الشرق ومن يحب التعلم يقصد إلى مدارس العرب. وبدا العالمان الغربي والشرقي في القرن الحادي عشر يتعارفان ودخل المسيحيون البرابرة إلى حضي المسلمين المندنين من طريقين .

الحرب والتجارة.

الحروب الصليبية - انتهى السنون من جهادهم المقدس فتسرع النصارى بجهادهم فكانت الحروب الصليبية. وقد دبر شأن الحروب الصليبية البابا أوربانوس الثاني في كنرمون وكان فرنسويًا. وكان يقصد من هذه الحرب إنقاذ البيت المقدس (أي قبر المسيح) من أيدي غير المسيحيين فمن يسافرون يجعون على اكتافهم صلياً أو صليب

البابا ومن هنا اشتق اسم الصليين. فكان الصلي حاجباً مسدداً ووعد البابا كل من يشترك بهذه الحملة أن يعفو عنه من كل التوريات التي تحملها لقاء خطاياها. وانضم إلى هؤلاء الثائبين أناس من تجار الطليان وفرسان رغبة أنفسهم بالغلبة وانتفعوا من غلبات الصليين غنى المندمين ليقيموا في سورية حيث أنشئوا أربع إمارات (كانت تسمى الإفرنج) وفي سنة ١٢٠٤ سار البنادقة حملة على القسطنطينية وفتحوا إمبراطورية الروم ولقد بدأت هذه الحرب أواخر القرن الحادي عشر ودامت إلى القرن الثالث عشر وكثيراً ما كانوا يتحدثون حتى القرن الخامس عشر بمعادوتها. وكانت آخر حملة من حملات الصليين في إسبانيا سنة ١٤٩٢ انتهت بأخذ غرناطة.

صفة الحروب الصليبية - كانت الحروب الصليبية حملات مؤلفة من المسيحيين منظمة بمعرفة البابا زعيم النصارى العام فكان كان صلي حاجباً مسدداً تعفو الكنيسة عن جميع الذنوب التي وقف فيها فكان الحاجون يجمعون جيوشاً ضخمة حول السادات القادريين أو حول نائب البابا ولكن لا نظام في صفوفهم فهم أحرار أن يتنقلوا من جيش إلى آخر أو أن يتركوا الحملة عندما يرون أن نذرهم قد تم. فالجيش الصليبي لم يكن سوى اجتماع عصابات تسير إلى مقصد واحد من طريق واحد فكانوا يسيرون مشوشاً نظامهم على مهل راكبين خيولاً ضخمة لا بسين دروعاً ثقيلة يحنون أثقالهم فيزولون بها كما ينزولون يخدمهم وبالنهايين معهم فكانوا يضعون أشهراً في اجتياز الإمبراطورية البيزنطية وقتال فرسان الأتراك في آسيا الصغرى والرجال والخيول تموت في القفار التي لا ماء فيها ولا مبليل إلى أخذ الميرة جوعاً وظمأً وكانت الأوبئة التي تحدث في المعسكرات التي يتزلزلها من قلة العناية والصوم المتعاقب بعد الإفراط في الطعام والشراب تحصد أرواحهم بالآلاف. وكان من يبنغون سورية قنيل عددهم ففي

الرجال وأي فتاة في القرن الثاني عشر على هذه الصورة على طريق الأرض المقدسة
فضاق صدر الصينيين من هذه الرحلات القاتلة في البر واخذوا يعدلون عنها وفي
القرن الثالث عشر قصدوا كنهم البلاد المقدسة من طريق البحر فكانت السفن
الإيطالية تقبهم وخبوهم إلى الأرض المقدسة في بضعة أشهر حيث يجاهدون الجهاد
الحقيقي.

كان الفرسان في قتالهم المسلمين إذا تساوى عدد المقاتلين قد يكتب النصر لهم وذلك
لأنهم كانوا يخوهم الضخمة وسلاحهم الذي لا يتأتى خرقه يؤلفون كتاب متراسة لا
يستطيع فرسان العرب الراكبون على خيول صغيرة أن يخرقوها بسهامهم وسيفهم.
نعم عن حروبهم لم تسفر عن نتيجة فعاد الصينيون الظافرون إلى أوروبا ورجع
المسلمون. وهذه الجيوش المقطعة كانت تستطيع فتح الأرض المقدسة ولكن لم تكف
لحفظها بيد أنه كان ينضم إلى أهل الصليب الذين أتوا لنجاة بأنفسهم من الخطايا
رجال من الفرسان والتجار الذين قصدوا البلاد ليغتوا فكانوا يعنون بحفظ البلاد
وهؤلاء كتب التوفيق التام في الحروب الصليبية باستخدامهم القوة المؤقتة التي كان
يوليها سواد الصينيين. فكانوا يديرون الأعمال الحربية وينشئون أدوات الحصار
ويأخذون المدن ويحصنون فيها بحيث يتوقعون عودة العدو. ولو ترك أولئك
الصينيون وأنفسهم لما استطاعوا أن يقاتلوا في تلك البلاد القاصية فإن الحملات ذات
الآهة التي كان المنوك قوادها (مثل لويس الثاني عشر وكونراد وفريدريك بروس
وفليب أغسطس ومنك أشر وسان لوي) قد أخفقت كلها إخفاقاً ذليلاً. والحروب
الصليبية الوحيدة التي نجحت حقيقة (الأولى التي فتحت سورية والرابعة التي فتحت
إمبراطورية الروم) وكان قواد الأولى النورمانديين من إيطاليا والأخرى البنادقة. وكانت

حماسة الصليين وشجاعتهم قوة عياء لا ينتفع بها إلا إذا كان المدبرون لها أناساً من أهل التجربة. وما كان الصلييون سوى معاونين والمؤسسون الحقيقيون للممالك المسيحية هم المتشردون والتجار من كانوا يشبهون المهاجرين الخدثين الذين كانوا يسافرون لاستيطان الشرق. وما كان هؤلاء المهاجرون قط من الكثرة بحيث تأهل بهم البلاد بل يزلوها متخذين لهم معسكرات بين أهلها الوطنيين ولم تكن الإمارات الإفريقية سوى عبارة عن حكم أشرف يقوم به بضعة ألوف من الفرسان الفرنسيين والتجار الإيطاليين فليس لها من تماسك الأجزاء ما كان لممالك الغرب التي تستند على الأمم والشعوب. فأشبهت هذه الإمارات الممالك التي أسسها زعماء الخاربين العرب أو الأتراك حيث تخرج الحكومة والجيش وهناك وإياه. وطال عمر هذه الإمارات قرنين وهي حياة تعد طويلة في الممالك الشرقية ولو تسرت هجرة قوية لها لتوطدت أسسها إزاء آسيا الإسلامية والبيزنطية ولكن أوروبا في القرون الوسطى لم تستطع أن تقوم بهذه المهجرات.

مضى نصف قرن ولم يشتغلوا بغير حرب صغار الأمراء في سورية وكان مسلمو مصر يعيشون معهم بسلام وهذا زمن نجاحهم ولما أتى صلاح الدين على الخلافة بمصر ففرضها وتآلف بدلاً منها حكومة عسكرية في القاهرة وهوجم المسيحيون من جهة مصر فتم يستطيعوا أن يقاوموا زمناً طويلاً (كما دلت على ذلك انتصارات صلاح الدين) فإذا كانوا احتفظوا بممالكهم قرناً آخر فذلك لأن السلاطين لم يحرصوا أن يبدوهم. لا جرم أن هذه الحرب كانت في نظر المسلمين جهاداً مقدساً ولكنها انقطعت بعهدات بضع سنين ولا ينبغي لنا أن ننصور جميع أمراء المسيحيين متحدين على أمراء المسلمين بل كانت المصالح السياسية أشد قوة من البغضاء الدينية وما برح أمراء

النصارى يتقاتلون بعضهم مع بعض كما كأمراء المسلمين يقتل بعضهم بعضاً وقد حدث أن أميراً مسيحياً تحالف مع أمير مسلم على أمير مسيحي. وما قط كان الاتفاق تاماً في جيش النصارى فالحناسة التي كانت تجمعهم لم تأت على منافستهم في التجارة ولا على تباعضهم الجنسي وكان النزاع دائماً بين الأمراء من مختلفي الممالك بين الفرنسيين والألمان والإنكليز بين تجار جنود جنوة وتجار البندقية بين التاميلية والإسبالية (فرسان الهيكلين والقريين) وكثيراً ما تقاتلوا. ومثل ذلك الخلاف بين الصليبيين القادمين من أوربا والإفرنج المقيمين في سورية. ولقد اتخذ الإفرنج عادات الشرقيين لما عاشوا بين أظهرهم فاستعملوا الحمامات والألبسة المسترسنة ونظنوا خيالة مسيحين على الطريقة الإسلامية وانشأوا يعاملون المسلمين معاملة اغاورين ولا يحاربونهم بدون داع. وأراد فرسان الغرب القدمين وقد مننت صدورهم غيظاً من المسلمين أن يبدوا كل شيء وقد حققوا من هذا التسامح فكانوا إذا خرجوا من البحر يتقصون على الأرض الإسلامية ويهرعون للقتال والنهب وكثيراً ما كانوا لا يسعون لما ينصح لهم به مسيحيو البلاد الواسع اختارهم في الحرب في الشرق أكثر منهم. ولقد وصف مؤرخو الغرب نصارى الأرض المقدسة بالنذالة والخديعة والفساد ونسبوا إليهم خرائب ممالك سورية. وليت شعري ماذا يكون منه الصدق في هذه التهم؟ ولا جرم في أن أولئك المتشردين من الإفرنج قد اغتروا على أسرع وجد وأخذوا يعيشون في بدخ باحتكاكهم بشعوب فاسدين قد سرت إليهم مفاسد كثيرة ولا سيما من ولد منهم في سورية وكانوا يدعونهم المهادى ولكن الصليبيين لم تكن لهم من المكانة ما يحولهم إصدار مثل هذه الأحكام فإنهم أنفسهم بفعلهم قد أحدثوا من المصائب أكثر مما أحدث نصارى سورية بترفهمهم.

يا شرق

لا الصبر ينفع ولا الجزع ... قلب يكاد مشجاء يطاع
 يا ليل هذا ساهر قلبي ... يرعى النجوم وقومه هجرها
 هل فيك ذو شجن يشاركني ... أشكر له ما بي فيتع
 سرت الهنوم فصمت أدفعها ... وإذا هموم ليس تندفع
 حلت بصدري لا تفارقه ... إن ضاق عنها فهي تتسع
 من بات تدمع عينه أسفاً ... فأنا فؤادي بات يدمع
 أشفقت من دهرى على أمني ... واليوم أنظر كيف ينقطع
 ويني عييد وهو يحذعني ... أدري حقيقته وأخذع
 يا شرق نجبت العداة هوى ... يا شرق أغراهم بك طمع
 عاشوا يؤلف بينهم وطن ... فتخالفوا فيه وهم شيع
 يتفرقون على مذاهبهم ... وعلى الإخاء الناس تجتمع
 جهنوا فأخضعهم تعصبهم ... والله لو علموا لما خضعوا
 أنذرهم يوماً صواعده ... لو مست الأفلاك تتصدع
 وارتبهم زمناً ألم بهم ... يبري لهم السهام ويتزع
 هتألم بالأمس إذ حضروا ... واليوم أرثيهم وقد وقعوا
 أهديتهم ودي فما قبوا ... أخصمتهم نصحي فما اتبعوا
 والشيء يرخص حين تبغله ... والشيء يغلو حين يمتنع
 ماذا على الأقدار لو نزعنا ... عن حربها فعداتنا نزعوا
 واسترجعت عهد الصفاء لهم ... وإذا تشاء فذاك يرجع

قد أجهدكم وهي عادمة ... وأظنها يوماً ستر تدع
 أبني بلادي قد مضت أمم ... هذا طريقهم الذي اشترعوا
 إنا حللنا في منازلهم ... وقد انجعنا حينما انتجعوا
 ولئن بطرنا مثلنا بطروا ... فنسوف نصرع مثلنا صرعوا
 إن تصبروا فنطالما صبروا ... أو تجزعوا فليشد ما جزعوا
 لم تعدنا حال لهم عرضت ... فحياتهم وحياتنا شرع
 أبداً تعيش على مغالبة ... الدهر يخفضنا ويرتفع
 ونراه يتدع الخطوب لنا ... حتى تغابت عنده البدع
 لم تنتفع بتجارب سنفت ... وأحال لنا بعد نتفع
 أشياخنا يمشي بهم كلف ... وشبابنا يجري بهم ولع
 يتحاربون على فؤادهم ... والحرب تأخذ ضعف ما تدع
 ماذا لهم لله درهم ... الناس قد عفوا وهم جشعوا
 إن القصور بهم مقعد ... مثل القبور بمن مضطجع
 أبني المسيح وأحد انتهوا ... ودعوا رجالاً منكم مجعوا
 جاؤوا الوري والأمر ملتئم ... ثم انتنوا والأمر متصدع
 لم يرض أحد والمسيح بما ... صنعوا فلا ترضوا عما صنعوا
 أرواحكم من بعضها قطع ... وجسومكم من بعضها بضع
 لا تحسن خلافكم ورعاً ... إن اتلافكم هو الورع
 الملك تعلية مدارس ... تلك المساجد فيه والبيع
 ويحب قوز (لعاشره) ... لا تذكر الأحاد والجمع

لمن الطلول كان عرصتها ... لنسوت منحرت ومزدرع
 آياتها ورسومها درست ... وخلابها مشتي ومرتب
 سكاتها عن محنها نزعوا ... ولطالما في خصبها رتعوا
 أسلافها في غابها أمتوا ... وبنوها في سوحها فزعوا
 شبح الزمان بهم وقد شمخوا ... واليوم يخشع إذ هم خشعوا
 وقد زل عند الصفو أجمعه ... وانتاب فيها الأزم الجذع
 كم عاش في آجامها بطل ... كالنيث لا وإن ولا طنع
 ثبت نجرد في مفاصته ... ينفي الدجا درعاً فيدرع
 يلقي الردى والبيض مصنته ... وأسنه الخطى تشترع
 والخليل غضبها في أعنتها ... والنطق منطق ومنقشع
 قمشي النواحظ منه في منك ... يسو الجلال به فيتضع
 حتام هذا الجهل مطرد ... ولي م ذلك ألغي منع
 وكان ريب الدهر في يده ... سيف على الأعناق ينتع
 ما يرتجي الأحرار من زمن ... يزداد تيهاً كئناً ضرعوا
 أوفي على المضمار مرتقباً ... يتسابقون به ويقترع
 إن بنعوا غاياتهم هنوا ... أو قصروا من دولها فجعوا
 هل تحت هذا الأفق من أمم ... جرعت كؤوسهم التي جرعوا
 أحشاؤهم حرى فنا ابتردوا ... وكبودهم ظنأى فنا انتقعوا
 إنا لأقوام لنا هم ... لنجد تدفعنا فتدفع
 العمر أمون أن يضيق بنا ... والموت للأحرار متسع

آداب المدارس والمدرّس

من استقرأ ما كتب في هذا الباب الواسع قديماً وحديثاً يرى عدداً من المؤلفات والمقالات لا يأتى عليها الحصر، ولا يخفى أن لروح كل عصر مظهراً فيما كتب في واجباته ومطالبه، وكثير منها يتبدل بغيرها لمسيس الحاجة إلى ما هو أهم منها أو اختلاف العادات في أطوارها وشؤونها إلا أن ما يتقاضاه العلم من آداب القائمين عليه درساً وتدرساً تتلاقى أصوله مع كل زمان ومكان، لذا رأيت من المهم نقل أبداع ما كتب في هذا الباب، غداً الأمانة لا تنفع أوج الخذلان إلا بالعلم ولا علم إلا بصلاح المدرّس والمدرّس والعالم والمتعلم إذ هم القائمون على تهذيب المنكات وإرشاد العقول، والهادون إلى صراط الحق وميزان العدل والصدق.

وقد رأيت من أحسن ما جمع في مقاصد هذا البحث الجليل ما أورده محيي الدين النووي - أحد أئمة الرواية والدراية المشاهير - في مقدمة (شرح المذهب) فأنثرت عند خلاصته ما أثره عن أساطين الحكمة المتقدمين وجعلته مقالة موجزة.

أحكام درس العلوم الشرعية - أنواع العلوم الشرعية لا تعد وفي أحكامها ثلاثة أقسام.

القسم الأول فرض العين منها ويقال له الضروري وهو درس المكف ما تصح به عقيدته وتجزئ معه عباداته، وتنفذ عقوده ومعاملته، وما لا غنى له عنه مما يتناوله ويستعمله.

وبدخل في ذلك درس أمراض القلب كالخسد والعجب والبخل وأمثالها من المهنكات
 فقد قال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين:
 القسم الثاني فرض الكفاية ويقال له الحاجي وهو درس ما لابد للناس منه في إقامة
 دينهم كحفظ القرآن والأحاديث وعنومها والصول والفقه والنحو واللغة ومعرفة رواية
 الحديث والإجماع والخلاف.

ومنه يحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب والهندسة.
 ومنه تعنى الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالزراعة ونحوها.
 القسم الثالث النقل ويقال له التحسيني وهو كالبحر في أصول الأدلة والإمعان فيها
 رواه القدر الذي يحصل به فرض الكفاية والتوسع في فنون الأدب والمقول.
 آداب المدرس

أهم ما يطنب منه أن يعتني به أدبه في نفسه وأدبه في درسه
 القسم الأول أدبه في نفسه - وذلك في أمور (منها) أن يقصد بتعليمه وجه الحق
 سبحانه وتعالى لا توسلاً إلى غرض دنيوي كمال أو جاد أو شهرة أو تكثير المختفين
 إليه أو نحو ذلك كما كان عليه سلف الأمة فقد قال الشافعي رحمه الله: وددت أن
 الحق تعنوا هذا العلم على أن لا ينسب إلي حرف منه: وقال أيضاً: ما نظرت أحداً
 قط عني الغيبة ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يده:
 (ومنها) أن يتخلق بالخصائص التي ورد الشرع بها وحث عليها والخلال الحنيدة والشميم
 المرعية التي أرشد إليها كالحنم والصبر والسخاء والجود وطلاقة الوجه من غير خروج
 إلى حد الخلاعة وملازمة الورع والوقار والتواضع والتطفف في البدن والنسبة.

(ومنها) الحذر من الحسد والرياء والإعجاب وتركية النفس وإزراء الناس وإن كانوا دونه بدرجات.

(ومنها) أنه إذا ترخص في أمر جائز وخيف أن يظن خلافه أن يحذر أصحابه ومن يراه حقيقة ذلك الفعل لينتفعوا ولئلا يأتوا بظلمهم السيئ.

القسم الثاني أديب في درسه - وذلك أن لا يزال مجتهداً في الاشتغال بالعلم قراءة ومطالعة وتعليماً ومباحثة ومذاكرة وتصنيفاً.

وأن لا يستحي من السؤال عما لم يعلم روي أمير المؤمنين ع أنه قال: من رقى وجهه رق عنده: وروى البخاري عن عائشة أم المؤمنين قالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين:

وأن لا يمنعه منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه فقد كان كثير من السلف يستفيد من تلامذته ما ليس عنده. قال الإمام النووي: قد ثبت في الصحيح رواية جماعة من الصحابة عن التابعين وروى جماعة من التابعين عن تابعي التابعين. وهذا عمرو بن شعيب ليس تابعياً وروى عنه أكثر من سبعين من التابعين. وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ لم يكن الذين كفروا على أبي بن كعب وقال أمرني الله أن أقرأ عليك: ويسون هذا النوع ورواية الأكابر عن الأصاغر.

وأن تكون ملازمة الاشتغال بالعلم هي مطوية به ورأس ماله فلا يشتغل بغيره فإن اضطر إلى غيره في وقت فعل ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم.

أديب في تصنيفه

قال النووي: ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له فيه يطلع على حقائق العلم ودقائقه ويثبت معه لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة، والتحقيق والمراجعة، والاطلاع

عَلَى مختلف كلام الأئمة وموقفه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما الاعتراض عليه من غيره، وبه يتصف اخفق بصفة اجتهد. وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصيف ما لم يتأهل له فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه.

وليحذر أيضاً من إخراج تصيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره. وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها فلا توضح إيضاحاً ينتهي إلى التراككة ولا يوجز إيجازاً يقضي إلى اخق والاستغلاق.

وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصيف بما لم يسبق إليه أكثر والمراد بهذا أن لا يكون هناك مصنف يعني عن مصنفه في جميع أساليبه فإن أغنى عن بعضها فيصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحفل بها مع ضم ما فاتته من الأساليب. وليكن تصيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج إليه.

آداب تعليمه

التعليم هو الأصل الذي به قوام الدين والدنيا وبه يؤمن أمحاق العلم وفي التزويل الحكيم: وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكصوه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ليلغ الشاهد منكم الغائب.

يجب العلم لأن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، وأن أي جعله وسيلة إلى غرض دنيوي لأن ما كان خالصاً كان مستمراً غصاً في كل حين وما كان لغرض زال عند الظفر به فقات ما قصد له.

ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية فإنه يرجى له حسن النية. وربما عسر في كثير من المبتدئين وتصحيح النية فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من

العنم مع أنه يرجي له تصحيحها إذا أنس بالعنم وقد قال بعض السلف طنبنا العنم لغير الله فأبي أن يكون إلا الله: معناه أن كانت عاقبته أن صار لله.

وينبغي أن يودب المتعتم بالتدريج بالأدب السنية والشيم المرضية، ويحرض على الإخلاص والصدق وحسن النية.

وينبغي أن يرغب بالعنم ويذكره بفضائله وفضائل علمائه.

وينبغي أن يحنو عليه ويعنى بمصالحه كاعتنائه بمصالح نفسه وولده، ورجي مجرى ولده في الشفقة، عليه والاهتمام بمصالحه، ويعذره في سوء أدب وجفوة تعرض معه في بعض الأحيان فإن الإنسان معرض للثقاتص.

وينبغي أن يكون سمحاً ببذل ما حصنه من العنم سهلاً على متبعه متطفاً في إفادته طالبه مع رفق ونصيحة وإرشاد إلى المهمات وتحريض على حفظ لم يبذله لهم من الفوائد.

ولا يذخر عنهم من أنواع العنم شيئاً يحتاجون إليه إذا كان الطالب أهلاً لذلك. ولا ينقي إليه الشيء لم يتأهل له لئلا يفسد عليه حاله فهو سأل المتعتم عن ذلك لم يجبه ويعرفه أن منعه ليس شعاً بل شفقة ولطفاً.

وينبغي ألا يعظم على المتعتمين بل يبين لهم ويتواضع وفي التزويل الحكيم واخفض جناحتك للثومنين.

وينبغي أن يكون حريصاً على تعينهم مهنتاً به مؤثراً له ويرحب بهم عند إقبالهم إليه ويظهر لهم البشر وطلاقة الوجه، ويحسن إليه بعنده وماله وجاهه، ولا يخاطب الفاضل منهم باسمه بل بكنيته.

وينبغي أن يتفقدتهم ويسأل عن غاب منهم.

وينبغي أن يكون باذلاً وسعياً في تفهيمهم وتقريب القائدة إلى أذهانهم حريصاً على هدايتهم.

وفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه فلا يعطيه ما لا يحسنه ولا يقصر به عما يحسنه بلا مشقة، ويخاطب كل واحد على قدر درجته وبحسب فهمه وفهمته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً محققاً ويوضح العبارة لغيره ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار. ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن لا يحفظ له الدليل فإن جهل دليل بعضها ذكره له ويذكر الدلائل لاحتياجها.

ويذكر ما يرد على المسألة وجوابه إن أمكنه.

ويبين الدليل الضعيف لئلا يغتر به فيقول: استدلووا بكذا وهو ضعيف لكذا ويبين الدليل المعتد ليعتد.

وفهمهم على غلط ما غلط فيها من المصنفين فيقول مثلاً: هذا هو الصواب وأما ما ذكره فلان فغلط أو فضعيف قاعداً للنضحية لئلا يغتر به لا تنقيص القائل فإن الانتقاد إنما يكون للنقول لا لقائده.

ويبين له جهلاً من أسماء المشهورين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فمن بعدهم من الأئمة المشاهير وأنسابهم وكنائهم وأعصارهم وطرق حكايتهم ونواديرهم، وضبط المشاكل من أنسابهم وصفاتهم، وتمييز المشتبه من ذلك، وجهلاً من الألفاظ اللغوية والعرفية ضبطاً لشكها ومحفي معانيها فيقول هي مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة مخففة أو مشددة. مهوزة أولاً، عربية أو أعجمية أو معربة وهي التي أصلها عجمي وتكلمت بها العرب، معروفة أو غيرها، مشتقة أولاً، مشتركة أم لا، مترادفة أم لا، وإن المهوز والمشدد يخففان أم لا، وأن فيها لغة أخرى أم لا.

وإذا وقعت مسألة غريبة لطيفة أو مما يسأله عنها في المعايمة نبد عليها وعرفه حالها في كل ذلك ويكون تعينه إياهم كل ذلك تدريجاً ليجتمع لهم طول الزمان جهل كثيرات. وينبغي أن يحرضهم على الاشتغال في كل وقت ويطلبهم في أوقات محفوظاتهم ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات فمن وجده حافظاً مراعيّاً له أكرمه وأثنى عليه وأشاع ذلك، ومن وجده مقصراً لأمه ويعيد له حتى يحفظه حفظاً واضحاً.

وينبغي أن يصنفهم في البحث فيعرف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً. وينبغي أن يقدم في تعليمهم إذا ازدحموا السبق فالأسبق ويتحرى تفهيمهم بأسر الطرق ويذكره مترسلاً مبيناً واضحاً ويكرر ما يشكل من معانيه وألفاظه حتى يفهموه، وإذا لم يكن البيان إلا بالتصريح بعبارة يستحي في العادة من ذكرها فيذكرها بصريح اسمها ولا يمتنع الحياء ومراعاة الأدب من ذلك فإن إيضاحها أهم من ذلك، وإنما يستحب الكناية في مثل هذا إذا عذروا المقصود منها عنأجنبياً وعلى هذا التفصيل يحمل ما ورد في الأحاديث من التصريح في وقت والكناية في وقت، ويؤخر ما ينبغي تأخيرها ويقدم ما ينبغي تقديمه، ويقف في موضع الوقف، ويصل في موضع الوصول.

ويحسن خنقة مع جنسائه ويوقر فاضلهم بعلم أو سن أو شرف أو صلاح، ويتنطف بالباقيين.

وينبغي أن يصرف يديه عن اللعب وعينه عن تفريق النظر بلا حاجة، ويعم الحاضرين بالفتاة ويمجنس في موضع يبرز وجهه لهم.

ويقدم من دروسه أهمها فيقدم التفسير ثم الحديث ثم الأصولين ثم الأهم فالأهم، ولا يقرأ الدرس وبه ما يزعجه كترض أو جوع أو مدافعة الحدث أو شدة فرح أو غم.

ولا يطيل مجلسه إطالة تمنهم أو تمنعهم فهم الدرس أو ضبطه، وليكن مجلسه واسعاً ولا يرفع صوته زيادة عن الحاجة ولا يخفضه خفصاً يمنع بعضهم كمال فهمه.

ويصون مجلسه من النفط والخاصين عن سوء الأدب في المباحثة، وإذا ظهر من أحدهم شيء من مبادئ ذلك تنطف في دفعه قبل انتشاره ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى فلا ينيق بنا المناقشة والمشاحنة بل سبيلنا الرفق والحياء واستفادة بعضنا من بعض واجتماع قلوبنا على ظهور الحق وحصول الفائدة.

وإذا سأل سائل عن أعجوبة فلا يسخرون منه.

وإذا سئل عن شيء لا يعرفه أو عرض في الدرس ما لا يعرفه فيقول لا أعرفه أو لا أتحققه ولا يستكف عن ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: يا أيها الناس من علم شيئاً فيقول به ومن لم يعلم فيقول الله أعلم فمن العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل ما أسألكم عنده من أجر وما أنا من المتكفزين رواه البخاري.

قالوا: وينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري: معانته يكثر منها، ولا يضع ذلك من منزلته بل يدل على وقور عقله وعظم محبته لأن المتكبر لا يضره عدم معرفته مستل معدودة، بل يمنع من لا أدري من قل عليه وقصرت معرفته وضعفت تقواه لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من عين سائنيه أو سامعيه وهو جهالة منه بإقدامه على الجواب فيما لا يعينه يضر نفسه وغيره وقد ييؤء بالخزي العاجل أولاً ثم الآجل وفي الحديث المنسبع بما لا يعطه كلابس ثوبي زور.

آداب الدارس المتعلم

أما آدابه في نفسه فكآداب المدرس وقد أوضحناها

وينبغي أن يظهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم واستثماره، أن يقطع العلائق الشائكة عن كمال الاجتهاد، ويرضي باليسير من القوت ويصبر على ضيق العيش قال أبو حنيفة رضي الله عنه: يستعان على العلم بجمع العلم ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة.

وقال الخطيب البغدادي: يستحب للطالب أن يكون عروباً ما أمكنه لتلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم.

وأن يتواضع للتعلم وينقاد له ويأتمر بأمره كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح. ولا يأخذ العلم إلا ممن كم لت أهليته وظهرت ديانتته وتحققت معرفته وكانت له دربة وخلق جميل وذهن صحيح وإطلاع تام.

وينبغي أن ينظر معلمه بعين الاحترام والرجحان على أكثر طبقاته فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخ ما تسعه منه في ذهنه وقد قال الشافعي: كنت اصفح الورق بين يدي مالك رحمه الله صفحاً رفيقاً هيبه له لتلا يسمع رفعها. وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلى هيبه له.

ويروى عن علي كرم الله وجهه قال: من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية. وأن تجلس أمامه وتشير عنده بيدك ولا تغزى بعينك غيره ولا تقول قال فلان خلاف قوله ولا تغلب عنده أحداً ولا تسار في مجنسه ولا بأحد بيوته ولا تلج عليه إذا كسل ولا تشبع من طول محبة فإثما هو عينك كالتخلة تنتظر متى يسقط عليها منك شيء.

ومن آداب المتعلم أن يتحرى رضا العلم وإن خالف رأي نفسه ولا يفشي له سرّاً وأن يرد غيبته إذا سمعها فإن عجز فارق الجنس وأن لا يدخل عليه بغير إذن وإذا كان معه

غيره قدم الأفضل والأسن وأن يدخل كامل الهيئة فارغ القلب من الشواغل متطهراً
متطفاً بسواك وقص ظنير وإزالة ربح ويسلم على الحاضرين بصوت يسمعون ويخص
الشيخ بزيادة إكرام وكذلك يسلم إذا انصرف.

ولا يتخطى رقاب الناس ويجلس حيث انتهى به المجلس إلا أن يأذن المعلم أو الحاضرون
بالتقدم والتخطي أو يعين من حالهم إشار ذلك ولا يقم أحداً من مجلسه فإن أثره غيره
بمجلسه لم يأخذ إلا أن يكون في ذلك صراحة للحاضرين بأن يقرب من الأستاذ
ويذاكره مذاكرة يتفح منها الحاضرون بها ولا يجلس وسط الحلقة إلا لضرورة ولا بين
الصالحين إلا برضاها وإذا فسح له وقعد وعرض على القرب من الأستاذ ليفهم كلامه
فهنا كاملاً بلا مشقة على شريطة أن لا يرتفع في المجلس على أفضل منه.

ويتأدب مع رفيقه وحاضري المجلس فإن تأدبه معهم تأدب مع الأستاذ واحترام مجلسه
ويقعد قعداً المتعنين ولا يضحك ولا يكسر الكلام بلا حاجة ولا يعبت يده ولا غيرها
ولا ينفت بلا حاجة بل يقبل على الأستاذ منصتاً إليه ولا يسبق إلى شرح مسألة أو
جواب سؤال إلا أن يعين رضاه فيستدل على فضيلة المعلم.

ولا يقرأ على أستاذه عند شغل قلبه وماله وعنه ونعاسه ونحو ذلك مما يشق عليه أو
يمنعه استيفاء الشرح ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلا أن يعين من حاله أنه لا
يكرهه ولا ينح في السؤال إلحاحاً مضجراً ويفتتم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه
وينظف في سؤاله ويحسن خطابه ولا يستحي من السؤال عما أشكل إليه بل
يستوضحه أكمل استيضاح فنن رق وجهه رق عنده ومن رق وجهه عند السؤال ظهر
نقصه عند اجتناع الرجال.

وإذا قال له الأستاذ فهت فلا يقل نعم حتى يتضح له المقصود إيضاحاً جلياً لئلا يكذب ويقوته الفهم ولا يستحي من قوله لم أفهم لأن استيفاه يحصل له مصاح عاجلة وأجته فمن العاجلة حفظ المسألة وسلامته من كذب ونفاق بإظهاره فهو ما لم يكن فهمه منها ومنها وثوق الأستاذ باعتقائه ورغبته وكمال عقده وورعه ومنكه لنفسه وعدم نفاقه ومن الأجته ثبوت الصواب في قلبه دانساً واعتياده هذه الطريقة المرضية والأخلاق المرضية وعن الخليل بن أحمد منزلة الجهل بين الحياء والأنفة.

وينبغي إذا سمع الأستاذ بقول مسألة أو يحكي حكاية وهو يحفظها أن يصفي لها إصغاء من لا يحفظها.

وينبغي أن يكون حريصاً على العنم مواظباً له في جميع أوقاته ليلاً ونهاراً حضراً وسفراً ولا يذهب من أوقاته شيئاً في غير العنم إلا بقدر ما لا بد له من أكل ونوم وراحة وما أجمل قول الشافعي: حتى غنى طلبة العنم بسوء غاية جهدهم في الاستكثار من العنم والصبر على كل عارض دون طنبه وإخلاص النية لله تعالى في إدراك عنده نصاً واستباطاً والرغبة إلى الله تعالى في العون عنده.

يقال: أجود أوقات الحفظ الإسحار ثم الغداة وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار لغراغ البال وهدوء الحركة ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع وأجود أماكن الحفظ العرف وكل موضع عن بعد الملهيات ولا يحدد الحفظ بمحضرة النيات والمحضرة والأفكار وقوارع الطرق لأنها تمنع غالباً خلو القلب.

وإذا جفاه الأستاذ رجع إليه بالاعتذار وأظهر تدمه وخطأه فذلك أنفع له ديناً ودنياً وأبقى لقلبه قالوا: من لم يصبر على ذل التعنم بقي دهره في عناية الجهل.

ومن آدابه الحلم والأناة وأن تكون همته عالية فلا يرضى باليسير من إمكان الكثير وأن لا يسوف في اشتغاله ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلت إذا تمكّن منها لأن للتأخير آفات ولا يحمل نفسه ما لا تطيق محافة المنزل.

وإذا جاء مجلس أستاذه ولم يحده انظر ولا يفوت درسه.

وإذا وجده نائماً لا يستأذن عليه بل يصبر حتى يتيقظ أو ينصرف والأحسن الصبر كما كان السلف يفعلون.

وينبغي أن يهتم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن وبداية الحاضر وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة وارتفاع الميزلة فقد قال الشافعي: تفقه قبل أن ترأس فإذا رأيت فلا سبيل إلى التفقه:

ويعني بتصحیح درسه الذي يحفظه تصحيحاً متقناً ويكرره مرات ليرسخه رسوخاً متأكداً ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيداً، وليذاكر محفوظاته وليدم الفكر فيها.

وينبغي أن يبدأ من دروسه وفي الحفظ والتكرار والمطالعة بالأهم فالأهم. وأول ما يتدبّر به حفظ القرآن العزيز فهو أهم العنوم. وكان السلف لا يعلنون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالا يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان، وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصراً ويبدأ بالأهم، ومن أهمها الحديث والأصول والنحو ثم الباقي.

وكنما أنقل مختصراً انتقل إلى أكبر منه مع المطالعة المتقنة والغاية الدائمة الحسنة وتعني ما يراه من النفائس والغرائب وحل المشكلات مما يراه في المطالعة أو يسعد من الأستاذ.

ولا يحقرن فائدة يراها أو يسعها في أي فن كانت بل يبادر إلى كتابتها ثم يواظب على

مطالعة ما كتبه.

وليكن بكل الدروس ويعتق عليها ما أمكن فإن عجز اعتنى بالأهم.

وينبغي أن يرشد رفيقه وغيرهم من الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة ويذكر لهم ما استفادته عنى جهة الصحة والمذاكرة.

ثمرة ذلك

قال الإمام النووي إثر ما تقدم: وإذا فعل ما ذكرناه، وتكاملت أهلية، واشتهرت فضيلته، اشتغل بالتصنيف، وجد في الجوع والتأليف، محققاً كل ما يذكره، ومبيناً في نقده واستباطه، متحريراً لإيضاح العبارات، وبيان المشككة مجتبياً العبارات الركيكات، والأدلة الواهيات، مستوعباً بعظم أحكام الفن غير محل بشيء من أصوله منها عنى القواعد فبذلك تظهر له الحقائق وتكشف له المشكلات، ويطلع عنى الغوامض وحل المعضلات، ويعرف مذاهب العناء والراجح من المرجوح، ويرتفع عن الجمود عنى محض التقنيد، وينتحي بالأنمة المجتهدين أو يقارهم إن وفق الله وبالله التوفيق اهـ كلام النووي.

آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

ينبغي لكل منهما أن لا يخل بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يحسن معه الاشتغال وأن لا يسأل أحداً تعنتاً وتعجزاً فالسائل تعنتاً وتعجزاً لا يستحق جواباً. وأن يعتني بتحصيل الكتب شراءً واستعارةً وليشتغل بنسخه أو امتساخه إذا كان نفسياً وليعتى بتصحيحه، ولا يرتض الاستعارة مع إمكان تحصيله، فإن استعاره لم يطل به لئلا يفوت الانتفاع به عنى صاحبه ولا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولا يمتنع من إعارته غيره لأنه أعانه عنى العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل (روى) أن رجلاً

قال لي العتاهية: أعزني كتابك قال: إني أكره ذلك قال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره: فأنارده، ويستحب شكر الغير لإحسانه وليحذر من الإبطاء بها عن أربابها قال الزهري: إياك وغنول الكتب: يعني حبسها عن أصحابها، وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها واشتدوا من ذلك أشياء كثيرة.

(خاتمة)

هذه النبذة من آداب المدرس والدارس أو المعلم والمتعلم مختصرة بالنسبة إلى ما جاء فيها

وقد اردت إحياء ما قاله الأنسة المتقدمون في هذا وتطرية ذكره لما فيه من الفوائد والحكم والنصائح التي هي نتيجة ما أوصى بها السلف أيام استبحار العلوم ونضارتها في حضارة القرون الأولى. فيحرص المدرس والدارس عليها وليحافظ العالم أو المتعلم غنى التخلف بها والاهتداء بها، فثمرة العلم العمل وبالله الاستعانة وعنده المتكل.

دمشق

جمال الدين القاسمي

مخطوطات ومطبوعات

مجموعة

اخرات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠ المجلد الثالث من ٢٦ تشرين الأول سنة ١٨٦٠ إلى ٥ آذار سنة ١٨٦١ ص ٤٨٠ تعريب الشيخين فليب وفريد الحازن صاحبي جريدة الارز طبع بمطبعة الصبر في جونية (لبنان) سنة ١٩١١

أحسننا لتاريخ هذه البلاد كل الإحسان معرباً هذا السفر النافع فإن جميع الناس لا يتيسر لهم الوصول إلى المطان الإفرنجية التي أخذ عنها والبلاد في حاجة إلى الاطلاع على ما دار بشأنها وعن أفكار الجانب فيها. وإن هذه اجنوعة إذا كانت تغيد لبنان خاصة فإن سورية عامة تستفيد من تعريبها لأن حياة هذه البلاد كالسلسلة ترتبط حلقاتها بعضها ببعض. وكنا نود أن لا يتوسع العربان في نقد إعتال معتدي الدول ذوات الشأن في حوادث ١٨٦٠ في سورية وأن لا ينظر لها كل ما أتته فرنسا في ذلك الحزين بأن الحكمة والإنسانية وحب الخير والتجرد عن كل طمع سياسي فإن آمال فرنسا في سورية معروفة منذ القدم وحمل أعمالها على مجرد الإحسان للبلاد ضرب من التجاوز لا يحسن صدره من يقف موقف المؤرخ والأيام تدل عكس دعواه. وقد اجاد العربان في الترجمة عن الإنكليزية والإفرنسية وأكثر مصادرها فرنسية فحاء الكتاب مستوفى لولا وقوع بعض هنات لغوية واستعمالات غير مألوفة يسقط فيها أكثر كتاب العصر خصوصاً من لا يساعدهم الوقت على النظر البليغ فيما ينشئون وينقلون كأرباب الصحف ولو كان في البلاد شيء من الرقي العنفي لتناورت عدة أيدي ما تحطه الأقلام بالنظر فيه قبل نشره كنا هو الحال في بعض بلاد الغرب إلى اليوم ولا سيما قبل أن يكون أهل كل لغة من اللغات الإفرنجية محكين لمنكة الانشاء في لسانهم ويا حبذا نرى في كل مطبعة من مطابعنا عالماً مصححاً يعني بقويم الحفوات اللغوية والبيانية وغيرها ليخرج جميع كنا نكتبه ونعربه سالماً من العيوب من كل وجه. وفي هذا المقام نعيد شكرنا للتعربين على نشاطهم وحسن بلاغهم ونرجو لهم التوفيق إلى إتمام بقية أجزاء الكتاب ونحث محبي الاطلاع ودرس تاريخ هذه البلاد أن يقتنوه ويتدارسوه فهو أول كتاب سياسي يتعنى بحياة هذه الديار.

دروس الجغرافيا

لنسيد عبد الهادي الأعظمي طبع بمطبعة دنكور في بغداد سنة ١٣٣٠ ص ٥٥

نرحب بكل كتاب عني يصدر بالعربية في مصر وتونس والشام والعراق لأنه دليل النهوض الحقيقي والأمة العربية لا ترقى إلا إذا كان فيها كتب ابتدائية ووسطى وعليا في كل فن من فنون الحضارة. وقد اعتد مؤلف هذه الرسالة على الكتب التركية وفقاص لبرنامج المعارف وتوسع في القسم الآخر وهو المتعلق بالبلاد العثمانية والقطر العراقي منها خاصة وخاطب فيه السيد الصغير خطاباً يروقه ويغرس فيه غرسة الوطنية ولستأ في رأي المؤلف في كلامه على تونس ولا في كلامه على طرابلس وبنغازي فقد قال في الأخيرتين وهي التي عليها تحاربنا بل تحاربها اليوم إيطاليا تريد اغتصابها وهبها فستبوء بالخسران عاجلاً إن شاء الله. . . وهناك أخوانكم المجاهدون يدعونكم الآن للاشتراك معهم في هذه السعادة الأبدية الشهادة في سبيل حفظ الدين والوطن قال هذه العبارات لا دخل لها في وعف البندان تعنم للنصيان كنا أن القصيدة التي اقتبسها في الأسطول آخر الرسالة لا صلة بينها وبين الموضوع بمحال.

وقد وقعت في الرسالة تحريفات مطبعية ونحوية وجغرافية وغيرها شوهت وجد المعنى وأخرجته عن القصد أحياناً وكنا نود لو يعرى منها مصنف من ألف للأحداث حتى ينطبعوا منذ نشأهم على الصواب. منها قوله الجغرافيا الطبيعي والجغرافيا الرياضي والجغرافيا السياسي والصواب الطبيعية الرياضية السياسية لأن لفظة الجغرافيا مؤنثة وقد طبع بذلك التركية ومنها قوله البر العتيق (لأوروبا وآسيا وأفريقية) والاصطلاح أن يقال العالم القديم كما يقال العالم الجديد لا البر الجديد ومنها قوله (ص ١٦) ساورينا منجيا لنجزيرتين المعروفتين في البحر الأبيض والصواب سردينيا وصقلية ومنها أن اسم

عاصمة الجبل الأسود شتبه والصواب متبعية أو جتية وقوله جنوة في بلاد تركستان والصواب خيرة وجنوة في إيطاليا ومنا قوله أن مساحة سورية تبلغ ١٠٠ ألف كيلومتر مربع والأصح ١١٥ ألفاً وفي تقويم غوتا أن مساحة لواء القدس ١٦ ألف كيلومتر مربع ومساحة متصرفية لبنان ٣١٠٠ ولواء الزور ٧٨ ألفاً (ويعد معظم من سورية وولاية سورية ٩٥٩٠٠ وولاية بيروت ١٦ ألفاً وولاية حنب ٨٦٦٠٠ ونحو نصفها من بلاد سورية. وخطأ في قوله أن الجزائر دخلت في حوزة فرنسا منذ قرن تقريباً والصحيح أنها بدأت بامتلاكها سنة ١٨٣٠. ومن التحريفات في الإعلام قوله أن قصة جرابوب أهم مدن السنوسين في أفريقية والصواب جغبوب وتابع اصطلاح بعض الكتاب في استعاضتهم عن عنى الله عليه وسلم بصنعهم والأجدر بمقام النبوة أن يذكر اللفظ كنه فإن بعض علماء المشرقيات في مطابع الغرب جروا عنى هذا الاصطلاح حب الاقتصار بادئ بدء ثم رجعوا عند فعسى أن يصلح ذلك في طبعة ثانية ويعارض أسماء البندان عنى ما طبع من كتب الجغرافيا لعناء العرب في أوروبا ليتابعهم في اصطلاحهم وذلك مثل كتاب معجم ما استعجم للبكري وتقوم البندان لأبي الفدا ومعجم البندان لياقوت والمسالك والممالك لابن حوقل والتبعية والإشراف للسعودي ومسالك الممالك للإصطخري وصفة جزيرة العرب للبهدائي والأعلاق النفيسة لابن رسته وأحسن التقاسيم للقدسي وكتاب البندان لابن الفقيه ومسالك الممالك لابن خردادبة وزبدة كشف الممالك لنظامري وعجائب البر والبحر لشيخ الربوة وغيرها من الكتب المستعنة التي نفهم منها اصطلاحات العرب وتعابيرهم ومعظم ما ذكره لم يطرأ عليه تغيير عنى كثرة ارتقاء علم الجغرافيا في العهد الأخير. وفي الخاتم لا نرى بدا من الشاء عنى المؤلف راجين أن يظل عنى نشر كل ما يث المعارف بين الناشئة العربية.

كتاب خالد

هو مجند في ٣٤٩ صفحة نشر بالإنكليزية في نيويورك صديقنا أمين أفندي ريحاني وهو رواية فلسفية اجتماعية جموع فيها عن الكلام عن المدينة الشرقية والمدينة الغربية أتى على ذكر الأوضاع الدينية والسياسية بلسان رشيقي مفراط في الحرية شهد له العارفون بأدب اللغة الإنكليزية أنه يعد في الطبقة الأولى من أحكام بيانها وأنه شاعر غير مدافع في منظومه ومنثوره فعسى أن يكون لكتابه بين العارفين بتلك اللغة من الواقع ما كان لكتبه باللغة العربية من الأثر في إزالة غشاوة الأوهام وعماء ينقله إلى العربية فيستفيد منه المشارقة والمغاربة على حد سوى فالأقربون أولى بالمعروف ومثله من يغار على إهائض الأمة العربية ويتوفر على تعينها مما عزم.

العقود النولوية

لبنين تواريخ كثيرة مختلفة الأزمان ومن أكبر مؤرخيها أبو الحسن علي بن حسن الخزرجي النسابة المعروف بابن وهاس المتوفى سنة ٨١٢ قال كاتب جنبي أنه عني بأخبار البنين فجمع تاريخاً على السنين وآخر على الأسماء وآخر على الدول وغيرها. ومن جملة مصنّفاته كتاب العقود النولوية فهو خاص تقريباً بتاريخ الدولة الرسولية نسبة لعلي بن رسول التي حكمت بلاد البنين زهاء قرنين (٦٢٦ - ٨٤٥) وقد ظهر بعض عناء المشرقيات بنسخة منه في الهند فترجموه بالإنكليزية ونشرت الآن جمعية تذكّار جب ثلاث مجلدات من الترجمة وينشر الأصل العربي عما قريب وقد ترجمه ونشره أربعة من أئمة المشرقين في إنكلترا وهم ريدموس وبراون ونيكلسون وروجرس

وسنقيض في الكلام على هذا التاريخ متى صدرت النسخة العربية منه ونكتفي الآن بإسداء أطيب التناء من تمحضوا لخدمة الآداب والتواريخ العربية من العارفين بلغات الشرق من الغربيين ومن يعنون بنشرها أمثال لجنة تذكّار جب.

دروس التاريخ الإسلامي

تألي فالشيخ محي الدين الخطاط القسم الرابع ص ٢٤٨ طبع بالمطبعة الأهلية في بيروت

وبنفقة المكتبة الأهلية فيها سنة ١٣٢٩

تكنمنا عن الأجزاء الأولى من هذا الكتاب وهذا الجزء يشتمل على مجمل تاريخ الدولة العباسية وقد جعله المؤلف جملاً كل جملة أو قطعة تحتوي خبراً يصح السكوت عنده وجعل في آخر كل درس أسئلة للطلاب يجيب عليها فيدل بذلك إن كان فهم ما مرّ معه من الحوادث أو لم يفهمه. وذلك بتسبيق حسن وعبرة سهلة فصيحة لا شائبة فيها بحيث جاء كتابه مستوفى في موضوعه لصغار الطلاب في التاريخ وقد جعل في الأخير صفحات فيها زبدة ما مرّ بالدارس ثم اتبعه بجدول يبين فيه أزمنة دولة الخلفاء الراشدين والأموية والعباسية بالتاريخين الهجري والميلادي كل ذلك بحرف جلي وطبع مشرق ويا حبذا لو شكل بعض الأعلام التي قد تشبه على أكثر الطلاب وعساه يتدارك ذلك في الطبعة الثانية وفقد الله لإتمام هذه السلاسل النافعة.

أريج الزهر

تأليف الشيخ مصطفى الغريبي طبع بالمطبعة الأهلية في بيروت سنة ١٣٢٩ - ١٩١١

ص ٢٤٠

وهو كتاب أخلاقي اجتماعي أدبي حوى ما كتبه المؤلف من المقالات في الموضوعات المختلفة في الصحف والمجلات بعبارات سليمة من التعقيد غارية من الغلط النغوي

والبياني ترصاها الخاصة ولا تنبو عنها أسماع العامة كما اعتاد قلم المؤلف في الكتب المدرسية وغيرها مما نشره حتى الآن من منظومه ومنثوره. وكتابات مثل صديقنا المؤلف هي الحقنة الموصنة بين أكثر طبقات القراء والكتب العالية في الدب والاجتماع والأخلاق ومسهلة طرق تفهيمها.

وقد قدم لهذا الكتاب الشيخ محي الدين الحياط الفاضل المشهور مقدمة رائعة بناها على حب الظهور وشرح ماله من الدخل في ارتقاء الأمم بعبارات تجمع المتانة سلاسة ثم عرف بصاحب الجوع واتى بنموذج من ادبه العطر وعرف الجوع وصاحبه بهذه الجملة هذا الجوع هو زهرة شبيهة فاضلة فاح أريجها غدا لم تدنسها أوصار الغوب ولم ينهكها ذبول الشرق فهو زهر أخلاق وفضائل بل هو غيرة مجسنة وحماسة تريد النهوض بناشئة الشرق والإشراف بهم على مدينة الغرب شأن أصحاب النفوس الكبيرة التي تريد الصعود من مدارج الجند والظهور من شرفات العلاء.

ومن مقالات هذا السفر النظيف. هج البلاغة أو أساليب الكلام العربي. أيها الإنسان. أقحط رجال أم قحط وجدان. إلى الأمة العربية. التربية أساس النجاح. الأناية وحب الذات. رجال الإصلاح. الإدارة. الألقاب والترتب. حديث مع النابتة. الانتقاد ومشارب المتقدين. سعادة الحياة. دلائل التوحيد. أم القرى. مجنى الأمة. المال والشرف. العادات. الميسر. الاستقلال الشخصي. القابلية والفاعلية. النظامات والأمم. الثورة الأدبية. السد الاجتماعي. الرابطة الدينية. الخرافات والبدع الدينية. العرب والترك. اللغة العربية وغير ذلك مما لا يحلو من الخطابات لتأثير في الجمهور وهي تحف عن غيرة وطنية وإرادة قوية في السعي لإهاض العقول من كبوتها في الشرق الإسلامي. فتبحث المتأدبين على اقتناء هذا الكتاب وفق الله مؤلفه إلى إتمام ما يريد من

التأليف والنشر فإن المؤلفين من المسلمين في بلاد الشام قلائل جداً والجد فيهم أقل وبعض من يقتدرون على الوضع والنقل شغلوا بالخواص في الموضوعات السياسية الزمنية في الصحف فأضاعوا مكانهم إلا قليلاً وهيئات أن ترتقي أمة يكون معظم أهلها ساسة ولذا وجب علينا تكريم كل من يتصدى لنفع أمة من طريق الإصلاح العلمي والأدبي والديني من أهل هذه الديار وفي جنتهم مؤلف أريج الذهب.

البصائر

مجلة جديدة تصدر في بيروت مرة في الشهر لمنشئها جميل بك العظم وقيمة اشتراكها ريالان وعدد صفحاتها ٤٠ ومن مقالاتها مقالة في التمجيد والمجدين وأخرى في الخط ومشاهير الخطاطين وهي تطبع كل شهر منمومة من مخطوط قديم وبدأت الآن بنشر كتاب تحبير الموشين في التعبير بالسین والشين لتفريز أبيادي صاحب القاموس. والمؤلف من الفاضل الذين يحسنون الكتابة بالتركية والعربية له اطلاع مهم على المخطوطات العربية ووقوف على الأدب وما ينبغي له ولذلك يرجى أن ينفع الآداب العربية بجمته لأنه يعرف الانتقاء ويحسن التأليف ويعد في جنة الأكفاء الذين أفدوا على نشر الجلات في الشام بعد حرية المطبوعات فعسى أن يثبت في خطته التي اختطها في مجته والثبت أس النجاح في كل الأعمال ولا سيما العلمية التي قلنا يجد عليها صاحبها تشييطاً مادياً أو معنوياً في بلاد تسعة أعشار أهلها أميون والمتعم منهم لا يعرف غير القشور دع عنك من كتب لهم الدروس العالية ومعظمهم لا يهتمون بغير التجارة والوظائف.

أخبار وأفكار

العرب والتجارة

بين تخوم آسيا وأفريقية تيقظ شعب يعهد سكوتاً لكنه سيستولي على البحر الرومي ثم
يتدخل لينافس الغربيين ونحن الآن لا يمكننا أن نقول شيئاً عن الحروب الصليبية قبل أن
نذكر طرائف تلك الأمة ونبيها محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى البعثة الخمدية. كان
العرب أنسباء اليهود يعيشون العيشة الرعائية غير أنهم عشاق سفر امتازوا بحب
التجول وقوة الهجوم وشدة الانفعال وليس لهم إلا الشرف وحب الشعر والأدب
وبغض الكذب مذهب يدينون به على أن أكثر الأديان التي وجدت قبل البعثة الخمدية
كانت تشابه العقيدة الفثية وتحير الاستلاب لا رابطة بين القبائل تضم الشعب سوى
احتفالهم العام في أم القرى كل عام.

كان الأنبياء الحنفيون منذ القرن السادس من التاريخ المسيحي تترى على العرب لقطع
شأفة الوثنية وإرجاعهم لملة أبيهم إبراهيم ومحمد أحد هؤلاء الحنفين يد أنه أفصحهم
لساناً وأكثرهم إقناعاً للعقول.

ولد محمد في مكة عام ٥٧٠ بين القرشيين سدة الكعبة ومروحي سلع عقائدهم القديمة
فما قام ينذر ويكبر حتى خاصته أهل قبيته بل اقرب الناس إليه وقاوموه جد المقاومة
فلما بدأ من المهاجرة إلى يثرب التي سميت بعدئذ بالمدينة وهنا ابتداء تاريخ المسلمين
الهجري موافقاً ١٦ ثور ٦٢٢ م.

وبعد دخول يثرب وجد بندا طيباً لبذر بذور دعوته فاتخذ له أنصاراً محنصين اشتد بهم
أزره فأعلن الحرب على المكين ثم دخل مكة وطنه ظافراً وكسر فيها الأصنام ونشر
الحكمة والكتاب وجمع شملهم بأصرة الوحدة الإسلامية العربية ثم توفي بعد أداء وظيفته
العظيمة عام ٦٣٢.

الإسلام أو الاستسلام إلى الله بعث إلى أتباع محمد وأنصاره روح النشاط والغيرة وعصية منكرتهم زمانم العالم وجعلتهم أساتذة إذ في قرن واحد أي من ٦٣٢ إلى ٧٣٢ استولى خنفاؤه الصحابة الراشدون والأمويون الوارثون ومن بعدهم على سورية وفلسطين والجزيرة سنة ٦٣٨ ومصر ٦٣٩ وفارس ٦٤٢ ثم تابع استيلائهم على تركستان وقطعة من الهند وبلاد الأرمن وقبرص وإقريطش (كريت) وطرابلس الغرب وأفريقية الشimalية كلها وعلى صقلية وسردينيا والجزائر الباليارية ثم هجم تيارهم على بلاد غاليا الإفريقية ومدد هناك كيان النصرانية إلا أنه وقف هذا التيار الجارف في بواطيه عام ٧٣٢ م .

وإن استبحار عوامهم وسرعة انتشار سلطتهم في المسكونة لما يساعد كثيرا على فهم مكانة المدنية العربية تلك المدنية التي يعتقد بدينها اليوم أكثر من ٣٠٠ مليون من البشر فقد كانت هذه الحضارة الباهرة في القرون الوسطى مزججا من المدنية البيزنطية والمسيحية وتم هذا المزيج المدني بأميرين الأول عشق العرب للتجارة والثاني غرامهم بالاستعمار وقد قال نبي العرب الذي كان قائد قوافل في حياته ثم صار تاجرا: (إن الله يحب المؤمن الخترف) وأمر العرب أن يدرسوا فنون الأدب والعلوم قتلا (الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما بينهم) ولذلك أصبحوا لذكائهم الوقاد وحب اطلاعهم على كل شيء مخصوصون غمار العلوم الطبيعية والرياضية فابتدعوا الكيمياء وبرعوا بها وطبقوا تلك العلوم على الزراعة والصناعة ولهم المنة على سائر الأمم بأرقامهم العربية الثابتة مناب الرومانية وباستيلائهم في الجبر والمقابلة واختصارهم الهندسة وأعمالهم الجنية الفنية في أبحاث سميت الشمس ومعادلة النيل والنهار والبقع الشمسية فقد اصطنعوا الآلات العجيبة الفنية كالإسطرلاب ونحوه واكتشف كينايوهم وأطبائهم خواص

الالكحول والنشادر وحامض الأزوت والكبريت والمياه المعدنية وأدخلوا في كثير من
علاجاتهم مواد من نبات بلادهم الوطنية كالكاפור والراوند والسنامكي وقد أوعىهم
قراحتهم التاريخية لإنشاء عمل شعري بديع وهو ألف ليلة وليلة أقول وهم أسرع
الناس إلى تدوين أنسابهم وملاحمهم وأبطالهم ورواية أشعارهم والكتابة في الفلسفة
والتاريخ وفنون الاجتماع كابن خلدون وغيره من جهابذة الإسلام.

أما الفنون الجميلة فإن العرب همجوا فيها هج البيزنطيين ولم يخالفوهم إلا بعدم تجسيم
الحيوان ولكنهم استعاضوا عنه بالنقش النباتي من تشبث أوراق وأقواس باهرة
وفصصة زاهرة وآطام ومعاهد ساحرة كقصور تونس ومصر وبغداد وجامع عمر في
القدس وجامع قرطبة والقصر في أشبيلية والحصراء في غرناطة الخ.

والعرب عنال زراعة ورجال براعة فقد برعوا في سقي الجنائن واخترعوا النواعير
العجيبة بل ووطئوا النباتات والأشجار الأفريقية والآسيوية في أوربا كالنخل والبرتقال
والنوت والقطن وقصب السكر والذرة والأرز والخنطة السوداء والزعفران والهندباء
والخرشوف والسبانخ والبادنجان والطرخون والبصل والياسمين الخ.

وينسب إليهم اختراع طواحين الهواء ونواعير الماء وهم هم الصناع الجيدون الأولى
صنعوا الجنود القرطبية وعملوا البسط الفاخرة ونسج الشف (برنجن) والحرير سينا
الأقشة الموصنية والأقشة والأمنحة الدمشقية وبخاري دمشق وبنيسية ومعامل
الزجاج الملون ومصانع الفخار الالامع والأواني المغربية وموارد أخرى عديدة بها أثرت
بغداد طنيطنة وقرطبة.

وفي التجارة أحرز العرب فوق النضال على سواهم فقد رفقوا الصناعة البحرية ووضعوا
قوانين لحقوق الملاحة واستعاروا بيت الإبرة من الصينيين (بوصلة) وضبطوا التجارة

بقن مسك الدفاتر أي ضبط وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف لفقراء ووضعوا
السفاح (كسالة) المألوفة وردود التمسك (بروستو) وبعثوا روح الحركة في مصارفنا
الحديثة.

وكنتم تراهم حينما سكنوا مهدوا السبيل وعبروا المرافى والغرض وأصنعوا وأنشأوا
القنادق والرباطات وربتوا سير القوافل الاقتصادية ولم تكن المدن الإسلامية غير أوساط
تجارية كبرى وبغداد دار السلام لم تكن من القرن الثامن للعاشر ومينائها الصرة غير
مستودعات للشرق بخلافه فقد كان بها مليون من السكان وكان لتجارها الكبار
علائق مع الموصل والبلاد الأرمنية وفارس وتركستان (بخارى وسمرقند) والهند وجزائر
الصوند (جاوة وسومطرة) التي كانت تباع الأخشاب الثمينة وكانوا يواصلون الصين
بطريقتين بري وهو ما توجه الرومانيون تمتد في سهول البايير ووادي تاريم والآخر بحري
وهو اخط الهندي ومحطاته مرفأ قنطون وستغارة القديمة التي كانوا يجلبون منها
الأقشة الحريرية والأواني الصينية وقطن نانكين والورق الأرزى وصنع النك ثم
يرجعون أدراجهم إلى بغداد لتوزيعها على سائر الجهات التي يستعمل أهلها سكة
الحنفاء. والدرهم الفضي كان يساوي نحو فرنك والدينار الذهبي مقدار ١٣ أو ١٤
فرنكاً وقد أهدى هارون الرشيد خيفة بغداد لشارلمان الأقشة الحريرية والعطور
وشمعاً مشعاً من القنز (برونز) وساعة مائية كانت مياً لإعجاب فرنجة إيكس
لأشابل فقابله على ذلك بالخيول المطهية والبغال المزينة وكلاب الصيد وأقشة مدنية
فريز لصوفية.

وكانت بغداد متصلة بكابل لأسواقها الشهيرة مع سمرقند وحلب المرتبتين بحبل من
القوافل السيارة متين. وهكذا كان ينقل شال كثير وأقمشتها ومسك التبت

وتركتان وعقاقيرها على ظهور الجمال في الغدو والأصال. وكانت دمشق مدينة الصناعة الجميلة مركز تجارة شبه جزيرة العرب ومصر وسورية. وبواسطة نهر السويس كانت تصل العرب بضائع عدن وجدة. وقد تحول لمصر قسم عظيم من الحركة التجارية وذلك من البلاد التي نبت فيها البذور الإسلامية كالشرق الأقصى ومنه الصين وماليزيا وأصقاع قروناندل ومالابار وجزيرة مدغسكار وقد أنشأ الخلفاء الفاطميون مصر القاهرة أي مدينة النصر ولا تبعد عن منفيس القديمة كثيراً.

واحتفظت مدينة الإسكندرية منياً بمكانتها السابقة وجرفت عربها نهر تراجان مرة ثانية وبه شدد وثائق النيل بالبحر الأحمر وسبروا بأسفارهم أغوار بلاد الحبشان وكردوفان وأسسوا المكاتب التجارية في أقطار أفريقية الشرقية ومونابا وكيوا وموزامبيق وعوفيا وميندا وجنبا منها المحرق الذهبي والعاج وحواشف السلاحف البحرية وأصبح في المغرب من العواصم الشهيرة كالقيروان ومرفأها السوس الصغير وأرغلا وواحيتها الغنية في الصحراء الجزائرية وتلمسان وفاس وغيرها من المدن الكبرى التي كانت ينابيع البيع والشراء والأخذ والعطاء.

وكان سكان فاس ٥٠٠ ألف وتصدر مختلف الأصواف والجواهر (المعادن) والعطور والجنود المراكشية واستعمرت مستعمرات في فزان وطواط والسودان وكانت طنجة التي يقطعها نهر النيجر مجنعاً كبيراً من مجامع الوكلاء التجارية. وأما قرطبة عاصمة الأندلس فقد كانت تحتوي على مليون من البشر وعلى ٢٧٣ ألف بيت و ٦٠ ألف قصر (خلفت عندها الأياض) وكانت في أشيية ٣٠٠ ألف نسمة وطليطنة ٢٠٠ ألف وكذلك غرناطة وقادس ومالقة والمرية ومرمية وجيان وطليطنة وسرقطة وبرشلونة فقد كانت هذه البلاد تضم بين جوانحها مختلف الشعوب الإسبانية ومتباين

الأمم الغربية التي كانت ترد حياضها لتناول أقذاح العنوم والصناعات والفنون ولجنب صنائع التبرج والزينة ودامت العلاقات الاقتصادية زمناً بين بيزر ومونبليه الفرنسيين وبين إسبانيا المسلمة.

وأما برشلونة وأشبيلية فكانتا من أكبر الموانئ الإسبانية وكانت الأولى ترسل سفنها للغرب وآسيا الصغرى ورودرس والقسططنية وعقدت في مصر معاهدات شتى مع بيزا وجنوة الإيطاليتين في مسائل الحوالات وسائر أعمال المصارف. وأما أشبيلية فكانت تبعث أساطينها وعسارها للأوقيانوس الأطلانطيكي لمداومة الجزائر البريطانية وبلاد القنار (هولاندة).

وإن تعجب فأعجب للغرب كيف نبغ بينهم لأستأثرهم المترامية أساتذة جغرافيون شذبوا بأقل وقت كتاب بطليموس واكتشفوا بلاداً أخرى بغير أقدامهم لم توطأ ووسعوا المصورات التقويمية للغربيين وأشربوهم دوق التنقل وحب الترحال لمحض بالذكر منهم المسعودي وابن حوقل وابن بطوطة والإصطخري ورتفع بين مشاهير الرواد راية سليمان وأبي زيد حسان النذان عاشا للقرن التاسع ولقيا بالخمسين وجاب أولهما شبه جزيرة مالقا واكتشف منسنة الجبال المسماة باسمه لليوم وسبر طول قعر السند واطلع ثانیها على أحوال ماليزيا والتبت وأقطار المحيط الهندي الأفريقية. وكم وكم عادت الحروب الصليبية على الغرب بخيرات لا تستقصى ولو لم يكن منها غير تحطيم قيود التعصبي الكيبي لكفى. وذلك لما رآه الصليبيون من تسامح المسلمين وتساهل مشاهير أمرائهم مثل صلاح الدين الأيوبي والملك العادل النذير لقي منهم أهل الصلب كل شرف ولطف وتفضل وبصدها تسير الأشياء ولذلك يمكننا أن نقول أن

الكنيسة ورؤساءها كبطرس الراهب الذين أرادوا تقويتها ورفع شأنها لم يسعوا ختنهم إلا بظنهم لأن تلك الحروب لم تجدهم إلا مشراً.

وإذا تألم الوجدان من تصالح الغرب مع الشرق وانقطاع ينابيع الدماء لذلك فقد اكتسبت هاتان الأمتان من الفوائد المادية والأخلاقية التي أذاقتهن طعم المعادة ما نساها أيام الشقاء. وهكذا ترى البحارة انتشرت بعد الحروب الصليبية أكثر من انتشارهم أيام الممالك الرومانية فتعادت أوروبا من العرب عادات الفضيحة والمدنية وكل ما يهون الحياة ويحليها للأنفس وابتدأ الغربيون يطوفون اقتباساً عن العرب مختلف أنواع النبات والحيوان واخذوا يصنعون الأقمشة القطنية والحريية ومكر القصب والألحاح وقنلوا العرب في أزيائهم وعمل الأسلحة العربية ثم توطن الأمن واتحدت العلاقات والإسلاميون وذاق الصليبيون لذة الأسفار بعد حروبهم حتى صار الآسيويون من الرأس الأصفر لا يخشون من رحيلهم إلى رومية وليون وبرشلونة وباريس بل ولوندرا العنيفة.

انقلب مجن الزمان بعد تلك الحروب وزالت الريب والمخاوف وابتدأ المتصالحون يتكلمون هذه الأرض يسرونها ويشكون في هيبتها حتى جرهم ترقى الجغرافيا لاكتشافات عديدة في العنوم الطبيعية والفلسفية بله نقول أيضاً أن تلك الحروب الصليبية وإن سبقت رواج أسواق التجارة غير أن هذه التجارة قد قويت متفرق المتحاربين ورأيت منهم الصدع وأسقطت السلاح من أيديهم وقدمت الهيئة الاجتماعية كثيراً.

دمشق

المترجم: عز الدين شيخ المروحية

أخوان روح القدس

كل دعوة تجدد في أميركا بلاد الغرائب أنصاراً وكل مذهب يصادف أخواناً وأخذاناً. وقد قرأنا في اخبة مقالة في مذهب جديد نشأ منذ بضع عشرة سنة يزعم أربايد أن المرضى مأخوذون لا يشفون إلا بطرد الشيطان عن أجسامهم بضربات من التوراة. نشأ هذا المذهب في ولاية مين في دورهام. ثم انتشر بفضل رئيسه فرانك ستانفورد الذي يدعو أتباعه إلياس الثاني ويرونه ظل الله على الأرض على أن من لا يعتقدون فيه يرونه من أبرع المشتغلين بالروحانيات أما المنحدون فيعتبرونه متعصباً محتالاً.

ولما شرع هذا الرجل بتأسيس معبد لشيعة لم يكن يملك قرشاً ففزع أحد الأخوان بالأرض وعبروها في مدة قليلة ومنهم المهندس والبناء ومنهم الذي أتى بالأحجار وآخر بالأخشاب وغيره بمواد البناء ومنهم من وقف ماله كله بحيث لم يمس على تأسيس هذه الشيعة ١٥ سنة إذ تأسست سنة ١٨٩٦ حتى أصبح رأس المال لها نصف مليون فرانك أتت كلها من صناعات يتلوها صاحب المذهب والأخوان يعتمدون على الله ولذلك يرون أنهم يغنيهم رب السنوات وقد زعموا أن الله بذاته أوعز بإنشاء هذا المعبد وقدر انجازه على آتم صورته مع ما يتبعه من مستشفى ذو أربع طبقات ومدارس ومساكن وغير ذلك فكانت الدراهم إذا نصبت يأتيهم الفرج من حيث لم يحتسبوا فيغادرون العمل ويزعمون أن ماتت آووا إلى هذا المستشفى فشفوا من أوصابهم من فاج وغيره بضرب كتاب التوراة على الحائط فما هو إلا أن تغادر أجسامهم الشياطين التي تليستها وقد ثبت ذلك فيما قالوا بألوف من الشهادات على أن التطب في هذا المستشفى مجاني يدخله الأخوان وغيرهم.

ويدعي ستانفورد أنه ينفذ إرادة الله على الأرض فيصعد كل يوم إلى برج عال في المعبد
ويكنم المولى كئيباً كزان يفعل موسى الكليم يستنلي أوامره تعالى ثم ينفذها أخوانه
فيجيئون عليها بالسكوت.

وأصل ستانفورد قس من أهل كيسة الباتست في نيوهامشير وهو قوي نشط شاب
تخلّى أول أمره عن كل ما يملك وبقي يسبح ثلاث سنين ونصفاً فنصح له أصحابه أن
لا يأتي ما أتى من ترك راحته وزوجته فلنك يسبح ويث دعوته فقبها من قبها
متأثرين من هيته العظيمة وحركته الأمرة وكلامه المقتع وأسوا المعبد في مكان عال
مشرف على مدينة مين ووضعوا تحت أمره مصرف الله وكل ما فيه للرب أقام
ستانفورد وكيلاً عنه.

ثم رأى هؤلاء الأخوان أن يثوا دعوتهم في أقطار الأرض فاتخذوا لهم أسطولاً يركبه
هم وحدهم وهم يتولون بأنفسهم جميع أموره وهو عبارة عن سفينتين ويخت وهذا
الأسطول ساعد ستانفورد وأشياعه أن يطوفوا أهم بلاد الكرة الأرضية فيينا كنت
تراهم في ليفربول إذا هم في فلسطين وكانت السنوات تقام في غياب ستانفورد كئيباً لو
كان حاضراً يقيها أكبر الجماعة سنّاً ويعقدون بأن روح صاحب المذهب لا تفتأ تدبر
أمرهم. وهم اشتراكيون بالفعل فينال كل أخ في اليوم كمية محددة من الخبز والطحين
تقل وتكثر بحسب الإيجاب من السنوات التي ينفذ أمرها ستانفورد وجميع الخوان
يعتدون على الله ولا يحسبون حساب الغد بل الله كفيل بحاجاتهم ويتعلم الأولاد كنهم
في المدارس الاعتماد على الله بحيث أن هؤلاء الجماعة لا يحزنون ولا يتأثرون حتى
لصائم في أعزهم فإذا مات لهم عزيز يجعونونه في نعشه بدون احتفال ولا أهمة ولا يكون
عنده ويعقدون أن الجسم هو غشاوة الروح التي يرفعها الله إليه وهو حر مطلق فيها

وما التأم للصاب إلا وهم وعبارة عن قامة الحجة على عمل المولى ولا يحفظون كثيراً
 بشور موتهم بل يكتبون اسم المتوفى بدون اسم أسرته بحيث يدرس بعد حين. وكان
 عدد هذه الشيعة إبان إنشائها نحو مائتي نسمة ولم يزد عددهم كثيراً بعد ولكن لهم في
 جميع الولايات المتحدة أشياء يمثلون ستانفورد في مذهبهم ومن هؤلاء الأخوان من كانوا
 أغنياء فتحنوا عن كل ما عندهم لأيديهم للطائفة ومنهم من كان يملك الخمسين أو المئة
 ألف فرنك.

وقد كتب ستانفورد كيف تدار آسيا وأفريقية وأوروبا والشرق الأقصى والصين واليابان
 وجزائر مالايو ومصر وفلسطين وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا لخدمة طائفته قال لقد أقتعني
 هذه السياحات بأنه من المتعذر نشر الإنجيل بسرعة في مجموع شعوب الكرة الأرضية
 فإن هذا العمل من الأوهام لأن كثيراً من البشر لم يسمعوا باسم الله قط ولا يعتقدون
 بشيء في حين ينسئ كل شيء بوجود الله إلا هذا الإنسان الذي يكفر به كنا قال
 ماتوبريان فإن عشب الوادي وأرز الجبل تقديسه والحشرة تطن بمدحهم والفيل يسلم
 عليه في الصباح الطير يتغنى باسمه في الأوراق والصاعقة تبث قدرته والبحر المحيط يعلن
 عظيته واتساع منكوته وما غير الإنسان منكر للنصائح ولا أكاد أحد ثلاثة ملايين من
 سكان الرض كنهم لا يعرفون من هو المسيح وإني لا أعتقد بأن الناس سيعرضون على
 الديان في اليوم الأكبر مقسومين إلى قسمين قسم يقوده المسيح والآخر المسيح الدجال
 إلى غير ذلك من العقائد وبعضه ملفق من الأديان السنأوية وبعضه من عادات القوم
 وتقاليده صاحب المذهب.

محصول الذهب والفضة

كتب إيف كويو الاقتصادي الشهير رئيس تحرير مجلة الاقتصاديين الباريزية مقالة في الذهب والفضة قال فيها ما تعريبه منحصراً: كانت أوروبا على عهد اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ فقيرة جداً بالمعادن الكريمة تملك ما قيمته نحو مئزار فرنك من الذهب والفضة وباكتشاف أميركا انصرفت الرغبة إلى جلب الأبيض والأصفر. ويؤخذ من تقرير وضعه بعض الاقتصاديين متخذين الكيلو غراماً واحداً قياساً فقلدوا كيلو غرام الذهب بـ ٣٤٤٤ فرنكاً و ٤٤ سنيماً و كيلو غرام الفضة بـ ٢٢٢ فرنكاً - إنه بلغ محصول الذهب من سنة ١٤٩٣ - ١٥٢٠ ٥٨٠٠ كيلو غرام قيمتها ٢٠ مليون فرنك ومحصول الفضة ٤٧ ألف كيلو قيمتها ١٠ ملايين فرنك وهكذا تدرج المحصول بحسب الأدوار حتى بلغ ما استخرج من الذهب من سنة ١٥٨١ - ١٦٠٠ ٧٣٨٠ كيلو من الذهب قيمتها ٢٥ مليون فرنك و ٤١٨٩٠٠ كيلو من الفضة قيمتها ٩٣ مليوناً. وكان مجموع محصول الذهب والفضة من سنة ١٥٦١ إلى سنة ١٥٨٠ - ١٨٠٠ مليون وفي العشرين السنة التالية بلغ مجموع ثمن المستخرج من المعدنين ٢٣٧٠ وهكذا بلغ مجموع قيمة ما استخرج من الذهب والفضة خلال مئة وسبع سنين ٤١٧٠ مليون فرنك أي نحو أربعة أضعاف ما كان في أوروبا على عهد الفتح الأميركي سنة ١٤٩٢ ومع كل هذا فإن إسبانيا لم تغنى بما ورد عليها أكثر من جميع ممالك أوروبا من الذهب ووقعت في ضائقة لا مثيل لها وأصبح جند فيليب الثاني بلا طعام ولا عنوقات فيمشون بالنهب والحاجيات غالية غلاءً فاحشاً أدى لوقوع الشكايات العامة.

فحددوا سعر الحنطة ومنعوا إصدار المصنوعات إلى أميركا كما منعوا إخراج الصوف فكان المعدنان الكريمان ينهالان على انفرس بواسطة صيارفة جنوبيين.

وما برح الاقتصاديون منذ بودين في القرن السابع عشر إلى لوك إلى مونتكيو إلى دافيد هوم إلى جيمس ميل إلى نيكسون وإصراهم يقولون في ارتفاع أسعار الذهب والفضة آراء وإن اختلفت في ألفاظها فمآلها واحد فقد قال هوم: زيدوا البضائع تزل قيمتها وزيدوا النقود ترتفع قيمتها. وقال الأستاذ نيكسون: الذهب ربح التجارة ومد الصناعة وجزرها وكثرته وقتته يعني أو يخفض الأسعار العامة كالريح أو الجوز يزيد أو يخفف سرعة البواخر.

وبعد فقد كان محصول الذهب مدة ٣٥٨ سنة أي من سنة ١٤٩٣ إلى ١٨٥٠ ٤٧٥٢٠٠٠ كيلو قيمتها ١٦٧٣٦ مليون فرنك ومحصول الفضة ١٤٩٨٢٦٠٠٠ كيلو ثمنها ٤٠٦١٧ مليون فرنك وبلغ محصول الذهب من سنة ١٨٥١ إلى ١٨٧٥ (١٦٤٤٨) مليون فرنك أي أنه تضاعف وبلغ محصوله من سنة ١٨٧٦ - ١٩١٠ (٣٩) مليار فرنك أي أن مجموع محصوله في ٣٥ سنة ساوى المجموع السابق كنه وزاد عنده ١٨ في المئة وقد زاد محصول الذهب منذ اكتشاف مناجمه في كاليفورنيا سنة ١٨٤٩ وفي أستراليا سنة ١٨٥٠.

وزادت حركة الغنى في أوروبا بعد سنة ١٨٤٧ وقت المجاعة ثم وقفت وقوفاً مؤقتاً زمن الثورات التي حدثت من سنة ١٨٤٨ إلى ١٨٤٩ في بعض بلاد أوروبا وبعد قبول إنكسار لقانون حرية المقايضة فقبض الناس أيديهم وتعطلوا عن العمل ونهبت الأموال فنما زالت تلك العشوائية عادت الحركة أكثر من قبل وكثر الطنب أكثر من العرض كما هي العادة في مثل هذه الأحوال بعد اشتداد النوازل وتكاثر الأحوال وكما كان معدنوا الذهب في كاليفورنيا وأستراليا يفرقون بما يستخرجونه من هذا المعدن الكريم وهم في حاجة للمصنوعات والمأكولات كانت الحركة تزيد بين الأمم وتربح من ذلك

البلاد الصناعية أرباحاً هائلة فضاغت إنكثرا من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٥٦ خطوطها الحديدية فحدث ٤٠٠٠ ميل زيادة وأنفق من هذا الذهب في حرب الترميم كمية ولكن كل حرب يعقبها ارتفاع في الأسعار. فالنشاط في الصناعة قد بدأ من جلب الذهب من كاليفورنيا وأستراليا إلى شرقي الولايات المتحدة فانشأت خطوطاً حديدية كثيرة بحيث بلغ ما مدته من سنة ١٨٤٩ - ١٨٥٧ (٢١) ألف كيلومتر ومن ذلك راجت سوق المضاربات والمصارف وكان من أمر هذه الحركة في ارتفاع الأسعار أن عادت فحدثت أزمة مالية في أميركا فاعلق فيها ١٥٠ مصرفاً دع عنك شركات الضمان التي آفست ولم يبق من مصارف نيويورك سوى مصرف واحد من ٦٩ مصرفاً استطاع أن يؤدي ما عليه واصاب إنكثرا من هذه الضائقة شيء كثير إذ كان لها في أميركا من الأموال ما تبلغ قيمته ثمانين مليون ليرة وعقب حرب إيطاليا وحرب الشال مع الجنوب في أميركا عادت الأسعار فارتفعت لا لكثرة الذهب بل لأن الذهب أصبح يقيض عليه بورك.

ولئن كان المعول على الذهب في مقايضات الأمم فإن البلاد ذات العيارين أي التي تعامل بالذهب على حد سواء ظلت ينهال عليها الذهب ومع هذا لم ترتفع أسعار الحاجيات على تلك النسبة فالخطة لم ترتفع إلا بفضل الولايات المتحدة والسكر نزلت أسعاره لكثرة انتشار زراعة الشوندر وبفضل فتح برزخ السويس وتسهيل طرق الملاحة لم ترتفع أسعار الشاي وكثير محصول الحديد وخف سعره ولكن كثر الطلب عليه بسرعة وزادت أسعار اللحم والجند زيادة فاحشة وكان من نتائج حرب النمسا وبروسيا ارتفاع الأجور كما كان من نتائج حرب فرنسا وألمانيا أن صرف فيها مباشرة أو بالواسطة ١٤ مليار فرنك ثم انشئت في الولايات المتحدة والنمسا وروسيا ألوف من

الكيومترات من الخطوط الحديدية. وكان من أمر الغرامة الحربية التي أخذتها ألمانيا من فرنسا أن زادت الحركة في ألمانيا زيادة عظيمة وكانت النمسا قد دخلت في جميع صروب المضاربات وفرنسا تحتاج للنمال وإنكثرا تحتاج للنقود لكثرت ما أصدرت منها إلى خارج بلادها فحدثت فيها أزمة سنة ١٨٧٥ وبها نزلت الأسعار وظل نزول الأسعار مطرداً من سنة ١٨٧٣ ما خلا بعض الأحوال القليلة ومنذ ذاك الحين لم يحدث من الحروب المهمة سوى الحرب الروسي العثماني الذي أنفقت فيه نفقات هائلة ولكن وسائل النقل وذرائع الانتفاع كثرت ونزلت ونزلت أسعار الحبوب بما ورد على أوروبا من حنطة الولايات المتحدة وكندا والهند وروسيا ثم حدثت حرب الترنسفال التي أنفقت فيها عدة مليارات من الفرنكات فأخذت الأسعار بالصعود ثم حدثت الحرب الروسية اليابانية فانفق عليها بضعة ملايين من مئاريات الفرنكات ومن جهة الأسباب في ارتفاع الأسعار قلّة مواشي أستراليا التي كان من جفاف ١٩٠٣ أن نزل عددها من ١٠٦٠٠٠ رأس إلى ٥٤ ألفاً وكثر الطلب على الصوف وكذلك زاد محصول الحرير والطلب عليه ومع تكاثر الناس والطلب على الحنطة كان محصول الذهب واحداً بالنسبة للحنطة والنعم بيد أن الذهب على زيادة محصوله السنة بعد الأخرى لم يكن السبب في ارتفاع الأسعار بل عن كثرتة أقل من ترقى صناعات الفحم الحجري والحديد وإذا قيس محصول الذهب بالنسبة لمجموع صناعة العالم فقيسته طفيفة جداً.

فما يخرج من المعامل من أنواع الصناعات والمصنوعات وما يخرج من المزارع من أنواع الغلات والشرارات أكثر بكثير مما يخرج من ركائز الذهب وإذا حسبنا مجموع ما يخرج من سكان الأرض وهم ألف وستة مائة مليون لا يعد محصول الذهب شيئاً في جانبه بل لا يكون واحداً في المئة من مجموع أعمال العالم وحاصلاتهم ثم إن ما يحصل من الذهب لا

يعامل بنحو نصفه فإن الحصول الذي يبلغ منذ اكتشاف أميركا إلى اليوم ٦٩ مئيار فرنك قد قدروا ما هو موجود في المصارف وبين أيدي الناس منه فتم يبلغ أكثر من ٣٦ مئياراً ونصف المئيار من القرنكات والنصف الآخر من محصول الذهب خزن أو استعمل في بعض الصناعات واختلف الاختصاصيون فيما تستغرقه الصناعات من الذهب ولم يتجاوز تقديرهم النصف من محصوله ولم يقص عن الثلث إلا قليلاً. وختم العالم صاحب هذه المقالة بحثه بالنتيجة التالية: (١) إن زيادة محصول الذهب كانت أبطأ بكثير من زيادة محصول الصناعات الرئيسية (٢) إن استخراج الذهب ليس إلا صناعة صغيرة (٣) إن زيادة المستخرج من الذهب وإن آكثرت فالطلب ما زال يتجاوز العرض غنى الدوام (٤) إن زيادة المستخرج من الذهب في السنين الأخيرة لم يؤثر في أدنى تأثير في ارتفاع أسعار بعض البضائع (٥) إن القائمين بنظرية الكمية لا يقاومون من مراقبة الواقع.

الشيوخ في أوروبا

أحصى أحد علماء الداعرك عدد الشيوخ في أوروبا الذين بلغوا المائة من عمرهم فوجدهم ٧٠٠٠ ووجد من إحصائه أن أكثر البلاد التي يوجد بها من هذا القليل هي البلقان إذ يبلغ عددهم ٥٠٠٠ من السبعة آلاف المذكورة.

ويوجد من كل مجموع هؤلاء الشيوخ ٣٨٨٣ بنغاريين و ١٠٧٤ رومانيين و ٥٧٣ صربيين و ٤١٠ إسبانيين و ٢١٣ فرنسويين و ١٩٧ إيطاليين و ١١٣ نمسويين و مجريين و ٩٢ إنكليزاً و ٨٩ روسيين و ٧٦ ألمانين و ٢٣ نرويجيين و ١٠ أسوجيين و ٥ بنجيكين و ٢ داغركيين.

هبات الأميركيين

قالت لجنة العالم الجديد كان مبلغ الهبات المالية التي وهبها الخسرون الأميركيون في سبيل الخير والنفع العالم في سنة ١٩١١ عني ما أعني في ختام هذه السنة ٢٥٨.٧٥١.٦٩٥ دولاراً وهو أعظم مبلغ وهب في سنة واحدة في أميركا بل ربما في العالم حتى الآن وكان الفائز بقصب السبق في مقدار البذل المثري والخصن الشهير أندرو كرونجي الذي بلغت هباته هذه السنة فوق الأربعين مليون دولار ولم تبلغ هبات روكفلر المثري الآخر الشهير غير ثلاثة ملايين وثمانمائة وعشرين ألفاً.

كيفما نظرت وآيسنا حننت في أميركا تجد آثار هبات اخسرين ظاهرة تنطق بفضنهم وتحنن الذكر الجليل لهم. فالملكاتب الجبينة ومعاهد العلم الجبينة والمستشفيات والملاجئ الخيرية المؤسسة والمدارة بالهبات الخصوصية من هذه الآثار كثيرة جداً وفي كل سنة تنفق الملايين من إحسانات الأفراد في سبيل متنوعة عني الفقراء واحتاجين عدا ما تبدل الحكومة والبنديات من هذا الوجه. وترى ملاجئ العجز ودور الصم والعيان والمقعدين والأيتام قائمة في كل جهة شواهد عني كرم أفراد اخسرين. خل عنتك ما يبذل في سبيل المتاحف ومعاهد الآثار والتهديب وما ينفق عني إرسال المبشرين ومساعدة رجال العلم وغير ذلك ألف أمر آخر تبسط له أكف اخسرين بسخاء يدل عني محبة صحيحة للخير والنفع العام.

وقد يتصور معظم الناس أن بذل المال عند كبار اخسرين أمر هوين مازال هذا المال موجوداً وليس عنهم غير إنفاقه إلا أن الحقيقة تناقض هذا التصور لأن بذل المبالغ الكبيرة من المال علم مستقل بنفسه يقتضي درساً دقيقاً حين يقصد القيام به بحكمة تضمن حصول النفع. ولهذا يستخدم جون روكفلر جماعة خصوصيين من الرجال الذين لا اهتمام لهم إلا بتوزيع هباته حيث يمكن تحقيق إتيانها بفائدة ومعظم اخسرين الكبار

يتصرفون بنوع من الثاني في بلدهم وكثيرون منهم يدرسون المشايخ التي يراد البذل في سبيلها درساً خصوصياً بنفوسهم على نحو ما يفعل مورغن وشيف وفي بعض الأحيان رو كفنر لنهم يعتبرون أنهم قد يبدلون ثرواتهم جزافاً إذا لم يترووا أو يسكنوا.

يؤثر عن أندرو كرنجي قوله أن لا خير في الرجل الذي يموت غنياً ويذهب كثيرون على أنه عامل على إنفاق كل ثروته قبل وفاته. إلا أن محسناً أميركياً آخر سبق كرنجي إلى العمل بمنطوق هذه العبارة فبذل كل ثروته البالغة سبعة ملايين دولار دون أن يحتفظ منها بشيء وهو الآن مقيم في أحد الملاجئ التي أنشأها كرمه يقضي بقية أيامه بسلام. وهذا المحسن هو الدكتور د. ك بيرسون من هايندزدايل إيلينوير الذي وهب في هذه السنة آخر ما كان يملك بما فيه أرضه والبيت المخططة به.

ولكن الدكتور بيرسون لا يعد من كبار محبتي سنة ١٩١١ وإن تكن هباته بإجهاها كبيرة. بل يرد في المقام الثاني بعد كرنجي الدكتور صونيل بالا أحد أطباء لوس أنجلوس كاليفورنيا الذي وهب ثروة لا تقل عن عشرة ملايين دولار ورثها من أسرته في بلاد الغر. وتحتل عن جميع ألقاب الشرف التي كانت له حينما تجنس بالجنسية الأميركية. وإن مثل الدكتور بالا وأندرو كرنجي - وكلاهما غير أميركي المولد - أكبر برهان على استحسان المهاجرين وعظم إقدامهم لوطنهم الجديد ومقدار شعورهم مع إخوانهم الأقل منهم حظاً.

ومن تنوع الغايات التي تناولتها إحسانات سنة ١٩١١ أن السيدة ماري تروتر شاستيان وقفت ثروتها البالغة خمسة ملايين دولار على إقامة منجاً للنساء من بنات النعمة النواقي آخى عليهن الدهر وأصبحن بلا منجأ. وقد أقيم هذا المنجأ في لكسن كينكي وهو الوحيد من نوعه في هذه البلاد.

ومنها أيضاً ما يسعى إليه أحد أعظم تجار شيكاغو جينس باتن من تطهير الأرض من
السائل الرئوي أو الطاعون الأبيض فقد خصص لذلك حتى الآن لا أقل من أربعة
ملايين دولار وهو يوالي تبرعاته بدون حساب في هذا السبيل. أما دافعه إلى ذلك فهو
أخاه توفي بالسبل أولاً ثم ما لبث أن توفي ابنه فكان له بذلك باعث شخصي على مقاتلة
المرض الويل زيادة على الباعث الإنساني العمومي.

ومنها أيضاً أن الصحافي الأميركي الشهير جوزيف بولتز صاحب جريدة الورد
النيويوركية الذي توفي هذه السنة خصص مبلغ مئوي دولار لإنشاء مدرسة صحافية
في جامعة كولمبيا. وقد كان بولتز مهاجراً أيضاً إلا أنه أصبح من أعظم الرجال
الأميركيين العموميين وكان قوة معدودة في السياسة ومن أكبر قادة الرأي العام على
الرغم من ابتلاءه بالعس في العشرين سنة الأخيرة من حياته.

أما أعظم هبات هذه السنة وهي التي تفوق قيمتها المليون ونصف المليون على اختلاف
غاياتها الخيرية والعنسية والتهديبية فبيانها كما يأتي:

أندرو كرنجي ٤٠٧١١٣٠٠

الدكتور صنوئل بالا ١٠٠٠٠٠٠٠

السيدة ماري تروتر شاستيان ٥٠٠٠٠٠٠

بيتر بنت بريغهام ٥٠٠٠٠٠٠

جينس باتن ٤٠٠٠٠٠٠

متشل فالتين ٢٥٥٩٥١٤

جون د. روكفيلر ٣٨٢٠٠٠٠

جون م. بورك ٢٠٠٠٠٠٠

الآنسة كاترين اوغستادي بوسيت ٢٠٠٠٠٠٠

جوزيف بوليتزر ٢٠٠٠٠٠٠

القائد ك. كولمان ٢٠٠٠٠٠٠

السيدة روميل ساج ١٥٠٠٠٠٠

جورج كلايتون ١٥٠٠٠٠٠

المرأة في الولايات المتحدة

كتب البارون دوستورل دي كوتشان من أعضاء مجلس الشيوخ في فرنسا مشاهدته في الولايات المتحدة فقال أن مسألة التربية المشتركة في الولايات المتحدة أي تربية الشبان مع الشابات قد انحل أشكالها في ولايات الغرب أما في ولايات الشرق فقد اخذوا يتناقشون فيها وذكر ما رآه في كليات الشرق من امتزاج البنين بالبنات في المدارس الداخلية فتراهم يتعصبون ويعبون ويتناضون معاً ولتفتيان أماكن خاصة لنومهم كما لتفتيات بحيث ترى ربان الجمال يعندن فلا يخفئ الهواء ولا البرد ولا الحر ولا عيون الرجال وما قط سمع بعار ارتكب أو فضيحة أتيت.

ولقد كان يخامر خاطري وأنا أرى أولئك الفتيان والفتيات يتراكن ويتدارسن متروكين لغرائزهم ثم بدا لي بعد الاختيار أن هذه التربية هي أكد الطرق إلى الفضيلة وأن استعمال الحرية أحسن ذريعة وأتم نظام وأن فتيان الفرنسيين ليغفلون إذا وهوا أن هذا النوع من التربية الأميركية لا يخرج رجالاً أكفاء ونساء ذات كفاءة فإذا نرى أبناء هذه التربية يسبحون في أوروبا وأكثرهم لا يعرفون لغاتها وبحسن رجولتهم وماتتهم يحسنون التخصص في كل مكان فهم يرون أن تربيتهم المستقلة لا تفصلهم عن سائر العالم بل تقرهم.

ولكألا سألني النساء ولاسيما في أقصى الغرب من أميركا حيث بلغ ارتقاء الجنس
اللطيف أقصى كماله عن رأيي في حالة المرأة الأميركية والمرأة الأوربية وقالت لي
إحدهن أنك أتيت من أوروبا بأوهام وتقاليد بشأن المرأة وكيف جاز للأمة الفرنسية أن
تشك في عفاف ابنتها فلا تتركها بعد العروب تسير وحدها فاجتهدت بان بناتنا قلما
تخاف عليهن من الوطني بقدر ما نخاف مثلاً على الفتاة التي تسير وحدها في جادة باريز
لكثرة ما يجيء هذه العاصنة من أخلاط الزمر الذين يميئون لينفقوا فيها أموالهم والفتاة
لا سلاح معها لا ضد القانون فقط بل ضد الأخلاق التي يجب تحسينها قبل كل شيء.
وقال لي إحدهن: ولا تظن أن المرأة الأميركية سعيدة أكثر من المرأة الإفرنسية فإن
زوجها وإياها لا يشركها في حياته كنا يشارك الفرنسي زوجته أو ابنته فالزوج
الإنكليزي يمر أمام امرأته والمرأة الأميركية تمر أمام زوجها أما المرأة الفرنسية فإنها تمر
مع زوجها كضاً إلى كنف.

نعم المرأة في فرنسا ولاسيما في البلاد التي لا يسمح فيها السائحون مثل مسقط رأسي
السارات هي الحاكسة الحقيقية في بيتها وبعبارة ثانية أن الحاكم هو الرجل والمرأة هي
الساهرة الرجل يأمر والمرأة توحى وتبذل كل ما يوسعها للقيام بكل ما يقتضيه منزلها
من الأعمال فهي تباكر قبل زوجها توقد النار وتهيئ الطعام وتوقظ الأخير أو تضع
العنف

للدواب بيدها وتفض ثيابها وتطلي الأحذية وتعين زوجها لشد دوابه فإذا ما انصرف
زوجها تضع كل شيء في الغرفة في محنة وكذلك المطبخ والدار والحق والنساء
والاصطبل وتنس الأولاد وتغفرهم وترسلهم إلى المدرسة وتصح الثياب وتغسلها
وتكويها وهي تكلم وتحدث وتقدم الطعام الجيد لزوجها وتعمل له الحنويات وتباعد

حاجياتها من البقال وتتقبل ضيوفها باسمه وهي بمندام نظيف آمنة مطمئنة وهي تحب حساب بيتها ومنهم في هذه المقاطعات من لا يعرف الكتابة إلا قليلاً ومع هذا ترى المرأة لا تخطيء فتدفع لهذا وتسلف ذاك وتوفي زيدا وتسلي زوجها وتدخل السرور على قلبه إذا كان كئيباً وتباحثه وتجادله فهي مستشارته وصاحبه ونصفه بل أحسن نصف فيه ولذلك لا ترى هذه المرأة تطالب بمثل ما يطالب به غيرها من نساء أميركا وإنكثرا من حق الانتخاب لأن القانون وضعها موضعها اللائق بها.

أقول هذا وأنا ألوم من استعنوا الشدة في إنكثرا مع النساء المطالبات بحقوق الانتخاب فوضعوا المرأة في طبقة أخط من طبقات الإنسانية أما في الولايات المتحدة فلم يرتكب أخط الساسة خطأً قط مع النساء كما ارتكب أحرار الإنكليز حتى أن الرئيس روزفلت نفسه القائل بالشدة لم يقاوم المرأة في وقت من الأوقات وعاملها بالحسنى على الجسنة.

وإن مسألة تصويت المرأة لتحل عقدة بعد أخرى في الولايات المتحدة وما النزين يصحكون اليوم من مطالبة النساء بهذا الحق إلا أناس يصحكن منهن غداً وهكذا كان حال كل المدافعين عن المطالب الشريفة وجميع المقدمين والمخبرين عن صحك الناس منهم وهزأوا بهم ثم أخذوا بعد ذلك يجلونهم ويقدمونهم وكقد نجح النساء في الولايات المتحدة بإشراكهن في انتخابات البلدية حتى أن منهن رئيسات في بعض البلديات كما من أمهات صالحات ويشاركن الرجال في الإقرار على ميزانيات المعارف وانتخاب المعلمين للمدارس أو أعضاء لدور الكتب دع عنك من دخل مرتين في التعليم وإدارة المدارس وغرف التجارة والزراعة وقد كان للنساء الأميركيات يد طولى في تحرير الزنوج ثم عاد الرجال فاضطهدوهن وأخرجوهن من دائرة العمل في إغاض بلادهن

على نحو ما يخرج من الجناة والجنائين فهم الآن لا يقنع إلا بمشاركة الرجل فلا يكتفين بالنفوذ بل يردن العمل بل العمل مباشرة. وقد ثبت لي أن النساء ممتعات في الانتخاب في المدن الداخلية حيث المرأة هي صاحبة الأمر والنهي في منزلها لا حيث النساء ينتهين بملاهي السواحل وحاناتها كما هو الحال في سان فرانسيسكو ولولا النساء في هذه الولاية لاشتعلت جذوة الحرب بين الولايات المتحدة واليابان ولكنهن ينطقن من تعالي الرجال ويعدهن إلى حظيرة التعقل في كل حال.

المدارس الابتدائية في أستراليا

أستراليا أو هولاندة الجديدة جزيرة كبرى للغاية في اخط الكير وهي من أهم المستعمرات الإنكليزية سكانها زهاء أربعة ملايين نصفهم من الأوربيين جاؤوها لاستثمار ما فيها من معادن الذهب والفضة والتوفر على تربية الماشية ومساحتها عبارة عن ٨. ٢١٥. ٦٧٣ كيلومتراً تقسك إلى عدة ولايات وتعد هذه الجزيرة إحدى قارات العالم الخامس وقد كتبت إحدى العقائل فيها بحثاً في مجلة مستندات الترقى الباريزية تصف مدارسها الابتدائية اللا دينية التي تقتصر على العنوم فقط فقالت أن لنظام التعليم في أستراليا مبدئين التعليم الإجباري والجنائي.

وقد كان عدد من دخلوا المدارس العامة في السنة الماضية من الأولاد ٧٢٨٠٠٠ ولد ومجنوع ما أنفقته ولايات هذه الجزيرة على التعليم ٧٥ مليون فرنك.

ولئن كانت المواد الجوهرية في التعليم الابتدائي الجيد موجودة ثمت منذ زمن طويل إلا أن مدارس حدائق الأطفال لام تنشأ إلا في العهد الأخير وكذلك مدارس تعليم البالغين. كان التعليم الابتدائي في أستراليا دهنراً طويلاً لا دخل للدين فيه بته ورأى

الشرع هناك بالنظر لكثرة المذاهب الدينية أن ليس من الحكمة إدخال مسائل الدين ومناقشته في المدرسة وإن غايتها يجب أن توفى بحاجات التعليم والتربية وليس في البلاد غير ولاية غالبا الجديدة في الجنوب شذت عن هذه القاعدة منذ زمن بعيد وأدخلت إلى مدارسها تعليم التوراة نازعة في تعليمها مترعاً لا يشعر بالتشيع لمذهب خاص من مذاهب النصرانية ومنذ زمن غير بعيد حدث هذا الحدو أيضاً ولايتان أقل مكانة من تلك وهما ولاية أستراليا الغربية وولاية تاسمانيا فأخذتا تقرآن في مدارسهما شيئاً من كتب الدين بيد أن الولايات الراقية من حيث الصناعة والعلم مثل ولاية فكتوريا وأستراليا الجنوبية وكندا قد احتفظن كل الاحتفاظ بمبدأ المدارس العلمانية.

ولم يبرح ولاية الأمور ولاسينا في فكتوريا يحرصون على تعزية المدارس من كل جدل ديني ويظهرون فضل هذه الطريقة وتنشئة أخلاق الأولاد ويبنون ما ينشأ من العدول عن كهذا المبدأ الذي ظهر ثمراته. وشعار مدارس ولاية فكتوريا في التعليم: الإيجابية والخاصية والعلمانية ومعنوم أن الإيجاب المدرسي مناف لتعليم الديني الإيجابي لأن هذا ربما مس العواطف الدينية في الأولاد وفي أهليهم تمكن قد تكون عقائدهم مخالفة لما يتقن أولادهم في المدارس.

أما الكنائس فإنها مخالفة لهذا المبدأ وهي بوجه الإجمال تناقض مبدأ التعليم العلماني ولاسينا الكنائس البروتستانتية فإنها تطالب بإدخال تعليم التوراة على مثال ولاية غالبا الجديدة في الجنوب ولطالما حاولت نيل ذلك فكانت الأكثرية في جانب المدارس العلمانية أما الكنيسة الكاثوليكية فإنها تفصل أن يكون التعليم علمياً محضاً من أن تعلم في المدارس التوراة فقط على الطريقة البروتستانتية وتوشك أن تؤسس مدارس لأبنائها خاصة يوم يقال لهم تعلموا علمنا دينياً يخالف مذهب آبائكم. أما غير المتدينين

والطبيعون فإنهم لا يقولون بتعليم ديني ولا بإقامة شيء من الشعائر وقد سمحت حكومة فيكتوريا آباء التلامذة أن يعمنوا أولادهم تعليماً دينياً بواسطة قسيسين من مذهبهم وذلك بعد إلقاء الدروس النظامية أو قبلها. وليست قراءة التوراة إجبارية حتى في مدارس الولايات التي تعلم الدين.

وعلى الجسنة فإن من ولايات أستراليا من لم تنزم الخطة اللادينية في التعليم ومنها من قبلت بتعليم التوراة مع سائر العلوم ولكل من التعيين أنصار ولها الأثر في تربية أرواح الأولاد. ويقول خصوم التعليم اللاديني في أستراليا أن حالة أخلاق الشبية في ولاية فيكتوريا أحط مما هي في سائر الولايات التي تعلم فيها التوراة ويقولون إن إحدى دور توليد النساء في ملبورن كان فيها نصف الأمهات من الفتيات من سن الـ ١٥ إلى الـ ٢٠ وبعضهن من سن الـ ١٢ إلى الـ ١٣ أو الـ ١٤ فيجيبهم خصومهم على ذلك بأن أمثال هذه الدور للتوليد لا تقبل إلا من كن بكريات من البنات ولذلك كان عدد عظيم ممن تزويهم من النساء من شابات للغة.

وقال الأستاذ آدم من كلية ملبورن أن عدد الجرائم قد تضاعفت في فرنسا من سنة ١٨٦٦ إلى ١٨٩٦ بسبب المدارس اللادينية وفاته أن التعليم الديني في خلال نصف هذه المدة كان إجبارياً في مدارس الفرنسيين وقد ادعى أحد القائمين بالتربية اللادينية أن مدارس ولاية غاليا الجديدة أتت بأنفع الشرات في مدارسها اللادينية أكثر من مدارس ولاية فيكتوريا اللادينية وأن عدد الجنح والجنايات أكثر في الولاية الأخيرة من الولاية الأولى على أنه لا يجب أن يفوتنا أن الإحصاء الذي يوردونه تأكيداً لمذاهبهم لا ينطبق مع حقيقة الواقع لأن من الولايات ما زاد نفوسها أكثر من غيرها ولذلك زادت

جرائمها لا لفقدان التعليم الديني منها والحقيقة أن عدد الجرائم كان هكذا سنة

١٩٠٨

ولايات تعليمها لا دييولايات ذات تعليم ديني ٢٤٧ كنيسة لاند ٤٩٦ أستراليا الغربية ٢١٦ فيكتوريا ٣٢٠ غالبا الجديدة الجنوبية ١٢٩ أستراليا الجنوبية ٢٩٢ تاسمانيا وقد كان معدل الولادات غير الشرعية سنة ١٩٠٧ ٦٦.٦ في المئة في إيكوسيا على حين كان ٩٩.٣ في المئة في إنكترا وبلاد الغال من بريطانيا وكانت فينا من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩٠٢ تعد في كل ألف امرأة غير متزوجة أو عذبة سنها من ١٥ إلى ٤٥ ٦١ ولادة غير شرعية في حين كانت باريز تعد ٣٦ في كل ألف أما سدي عاصمة أستراليا كتبها وفيها تعليم ديني فكان منها معدل الولادات غير المشروعة خلال تلك المدة ١٧.٩ في المئة وكان معدل الولادات في ولاية منبورن اللادينية ١٣.٥ في المئة وإدبيرغ ١.٣ في المئة ولندرا ٦.٤ في المئة.

ومتى علم لم انتشرت الرذيلة في بعض المدن التي ذكرناها ولا سيما في لندرا يعجب المرء أن يرى إلى أي درجة يمكن تأثير طريقة التسجيل في الإحصاءات وكيف انتشرت طرق مقاومة الجبل انتشاراً فاحشاً. وما هذه الإحصاءات في الحقيقة بمسند يصدق على سمو الأخلاق بل ولا على انحطاطها إلا إلى حد محدود فإن كثيراً من الولادات غير المشروعة تكون في أمة دليل الجهل أكثر مما هي دليل فساد الأخلاق ولا يصير إلى دور التوليد إلا الجاهلات أما الفاسدات من النساء فإنهن يعرفن من أين تוכל الكتف إذا وقعن في مآزق وحمق من حرام.

بيد أن الإحصاءات في أستراليا ثبتت مكانة الأخلاق في الولايات التي اتخذت في مدارسها الحياد قاعدة في مسائل الدين ولكن هذه المكانة يحترز المربون اللادينيون من

نسبتها خاصة إلى التعليم اللاديني ولا يعملون إلى الاستشهاد بالإحصاءات إلا لرد حجج خصومهم في فوائد المدارس اللادينية.

هذا ما قالته كاتبة المقالة ونحن لا نشك ولا تنفي الآن من ترجيح إحدى الطريقتين الدينية واللا دينية ولا سيما في هذه الديار اجهول أمرها فعسى ألا يتأذى أحد بما تقدمه الشهر بعد الشهر عن مجلات الغربيين لنعبرة والاستفادة وما القصد خدمة رجال الدين ولا غيرهم بل عرض أوضاع الغرب وأهل الشرق معها وما يختارون.

مدينة في حديقة

يشنون الآن على مسافة خمسين كيلومتر من شمالي لندرا مدينة في حديقة غناء لإيواء النقطاء واليتامى من الأولاد وكانت ربت إدارة هذه المدينة في معاهدها حتى اليوم منذ أربعين سنة وهو وقت إنشائها ٧٠٤٣٦ طفلاً وأنشأت ٢٥ ألف معهد في المستعمرات الإنكليزية لهذا الغرض والغاية من إنشاء هذه المدينة الجديدة تدريب الأولاد على حياة الزراعة ولا سيما في سهول كند الفسيحة ومنقسم المدينة إلى ٢٨ داراً كل منها تزوي ٣٠ ولداً ولكل دار حديقة وحقل يعمل فيه الأولاد يفصل كل بيت عن جاره وهناك مستشفى وحوضر لتربية السناك.

وقد سبقت ألمانيا وأنشئت هذا النوع من المدن الحديثة الخارجة عن الحواضر والعواصم لتبقى هذه للأعمال التجارية وتكون المدن الحديثة للنسحة والراحة تعود بالإنسان إلى الطبيعة التي فقد الإنسان الاستمتاع بها بما يراود في المدن الحديثة من بنايات ذات أربع أو خمس طبقات. وقد رأى القاصون بذلك من الألمان أن الراضي في الضواحي البعيدة رخيصة لا تخضع لقانون المضاربات ويشترط على كل صاحب بيت

مالكاً كان أو مستأجراً أن يريد في مجال بقعته جمالاً بما يغرسه فيها من الأشجار وينشئه من الحدائق الأنيقة ويشترط عليه أيضاً أن يقي قطعة يغرس فيها أنواع الزهور وحدائق وراء بيته ينبع فيها أولاده وقد أنشأ هؤلاء المفكرون في الضواحي حمامات ومحال النعب ومكاتب للمطالعة ومحال للنساج مجانية ودور تمثيل ومتاحف ومستوصفات مجانية وملاجئ للأمهات وغير ذلك من المنشطات وكنها بلا مقابل.

النب

معظم بلاد الغرب تخرج من النبن الحبيب والزبدة والجبن وسائر ما يغرس من النبن صنوفاً وضروباً ولبن تجارة واسعة تعد بالملايين وقد ساعدت على إثمارها وغو الزراعة بالمراعي الكثيرة والوسائل العننية الوفيرة ولذا رأينا في أوروبا فلاحاً يعيش هو وأسرته من بقرة أو غنيتين ولذلك أمثال في هذا الشرق أيضاً ولكن المتوفرين هنا على تربية المواشي الجنوبية أقل بكثير من المتوفرين في الغرب عليها فتجد في سويسرا ثلاثة أرباع الأراضي الزراعية مخصصة للمراعي وتقدر مساحتها بعشرين مليون هكتولتر وثمنها بـ ٣٣٣ مليون فرنك ونصف المراعي يصرف بطبعه وسبه ملايين هكتولتر تصرف لعل الزبدة والجبن والباقي للحصول على الطحين النبي والشوكولاتا بالنبن. وسويسرا تصدر معظم ما تعينه من النبن اخمد والجبن والطحين النبي إلى البلاد الخارجية وفي سويسرا مليون ونصف مليون رأس من الماشية و ٣٦٠ ألفاً من المعزي ولكثرة ما يورد عليها من الأجانب السانحين تحب من البلاد الخارجية ٤٧ ألف رأس بقر و ١١٨ ألفاً من الخرفان و ١٥٠ ألف خنزير في السنة وهكذا الحال في فرنسا وألمانيا وغيرها من البلاد فمن تكون واردات المنيكة العشائية كنها من ألبانه بقدر واردات سويسرا فقط

وسويسرا بمساحتها أقل من نصف ولاية سورية فقط وبنفوسها تقرب من نفوس القطر السوري فتأمل.

المدارس الفرنسية في الشرق

يستفاد من تقرير المسير ديشانل أن عدد التلاميذ الذين تنقوا علومهم في المدارس الفرنسية في بلاد السلطنة وفي الشرق قد بلغ في العام المدرسي الأخير ١٠٤ آلاف منهم ٧٤ ألف تنيد في السلطنة و ٢١ ألفاً و ٥٠٠ في القطر المصري و ٢٩٠٠ في اليونانية و ٣٢٥ في كريت و ٦٦٧ في قبرص و ٢٠٠٠ في بنغارية و ٢٠٠ في رومانية و ٢٨٠٠ في إيران.

أما عدد الذين تنقوا العلوم العالية فبلغ ٧٥٢ والعلوم التجارية وغيرها ١٦٩٥ والعلوم الثانوية ٩٩٤٣ والعلوم الابتدائية ٩١ ألفاً و ٤٨٥.

الطلاق في يابان

يزداد الطلاق في الغرب اليوم بعد اليوم لكنه في الشرق أكثر ولا سيما في الشرق الأقصى فقد ذكرت إحدى مجلات يابان أنه كان سنة ١٨٧٠ بالنسبة لزوج ٨٤ في كل عشرة آلاف فتجاوز معدله اليوم ٢٥٠ في العشرة آلاف والمرأة هي التي تطلب في الغلب طلاقها وذلك بفضل التربية والتعليم فقد ارتقت المرأة اليابانية وشعرت بحب الحرية أنها لا ترى أن تقيد بزواج قيداً أبدياً. ولو تعلت ما ينفعها في منزلها وأسرتها على نسبة ما ينفعها في توسيع عقنها لما آثرت على عيش الأسرة حياة غيرها وليس السبب في طلب المرأة اليابانية الطلاق سوء الأخلاق وخيانة الزوج والزوجة بل توسع المرأة في تقاضي حقوقها. قالت وقد اختلفوا في الغرب بأمر الطلاق فالكاثوليك يحرمون من يأتيه ويرون أن عقد الزواج لا ينقسم إلا بالموت والبروتستانت يحنونته ولكن بشرط

والمحدون يعتقدون ويحنون على هواهم ويرى بعض الاجتماعيين أن الطلاق هو الدواء الوحيد الشافي من أصعب أمراض اجتماع ونحن نقول ما قاله أسلافنا أن أبض الحلال إلى الله الطلاق.

براميل القمامات

تضع مدينة باريز براميل أمام البيوت وأعمال لينقي فيها الباريزيون القمامات والكذاسات التي يكسحونها من دورهم وشوارعهم يسونه نسبة لأحد ولاية باريز السابقين الذي ابتكر هذه الطريقة فوضع هذه البراميل لنلا تلقى القاذورات في كل مكان فيتأذى بها أبناء السبيل وتضر بصحة السكان ومن العجيب أن الإفرنج يحسبون استخدام كل شيء وينتفعون من كل مادة ومن كان يحيل إليه أن عشرة آلاف رجل وامرأة وولد يتوفرون كل يوم على البحث في هذه العنب والبراميل قبل أن يرفعها الكساحون في عجلاهم وينقلوها في أماكن تستخدم لتسيد أراضي الضاحية فيعشرون فيها أحياناً على لقط لا تحظر في بال ويتناولون منها فضلات تقدر بعضها بصفة ملايين وهكذا يستخرج اليوم اللانولين الذي لم يكن معروفاً منذ عشرين سنة وهو يتألف من بقايا أنسجة الصوف والخرق التي تغسل مما علق بها من المواد الدهنية والزيتية وغيرها ومن اللانولين يربح أرباب العامل أرباحاً مهمة وكذلك الحال في قطع الزجاج التي يعزلونها من هذه العنب ويسحقونها أو يمزجون مسحوقها بملاط بورتلاند فيأتي منه مزيج يكون منه بلاط شفاف أقل الماس على تليط الدور والحوانيت به ويعملون من هذا المسحوق أيضاً قروميداً دخل في بعض الأبنية. ويستخدمون أيضاً الزجاج المكسور وحوالة بقايا البقول والجلد والأحذية العتيقة والقفاير البالية والمسامير القديمة المصدبة والمفاتيح والأقفال الخاطئة مما تظنه ربة المنزل لا فائدة فيه.

وقد جرت بعض مدن أميركا على هذه القاعدة في أنه لا شيء بدون نفع فأخذت تسحق هذه القيادات على اختلاف تركيبها وتجمعها ذروراً يصير منها نافع يحتوي على المواد النباتية والحديد النافع في إخصاب الأرض. وكم للإفراج في هذه السيل من أعمال يحينون بها ما لا يعتقد غناءه إلى مواد نافعة حتى لقد بلغ بهم التضيق في العلم أخذوا يجمعون الدخان الذي تقذفه المواقد العالية فيضرب بالمروروعات ويحولونه إلى قني طيار وهذا النشادر يباع بأثمان مهيمة ويتجر به المتجرون.

الخبز البندي في بودابست

أنشئ هذا الخبز في عاصمة المجر سنة ١٩٠٣ وهو يكاد يكفي حاجات المدينة ومعاهدها ويخبز كل يوم ٢٨ ألف كيلو من الخبز تحبز كلها بواسطة أدوات لا تمسها يد إنسان في أمكنة مستوفاة من حيث حفظ الصحة وقد كاد يقضي هذا الخبز على الخبازين في المدينة فاضطروا أن يخفضوا أسعار الخبز ولكن الناس يقبلون على خبز الخبز لنظافته ورخص أسعاره والخبز يدفع أجوراً لعنته أكثر من سائر الخبازة ويعملون في النهار ساعتين أقل من أخوانهم في الأفران الأخرى.